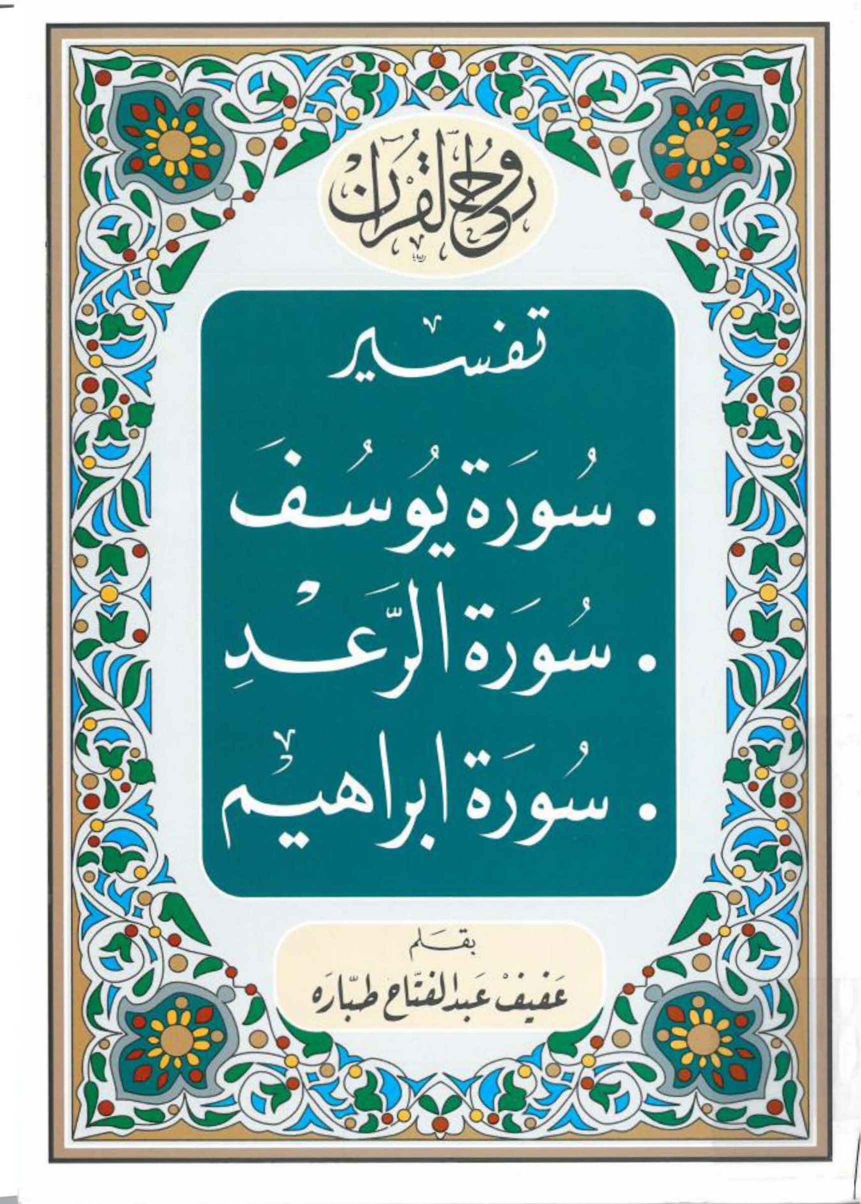

روح القرآن
تفسير
. سورة يوسف
. سورة الرعد
. سورة ابراهيم
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:

إِنَّ أُفضلكم مَن تعلَّم القرآن وَعَلَّمَه

روح القرآن

تفسير

الجزء الثالث عشر وقسم من الجزء الثاني عشر

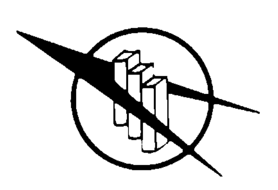
. سورة يوسف
. سورة الرعد
. سورة ابراهيم

بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص. ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
أيار / مايو ١٩٩٩

تعريف بسورة يوسف

هذه السورة التي تعرض قصة يوسف عليه السلام نزلت بمكة وهي تختلف عن سائر قصص الأنبياء في القرآن الكريم وذلك لأنها جاءت كاملة من بدايتها إلى نهايتها.

فهذه القصة تبين أمر يوسف مع أبيه الذي كان يؤثره بحبه، وقد ظهر ذلك حين قص يوسف على أبيه رؤيا رآها في منامه تنبىء عن عزّ ورفعة له في مستقبل الأيام، فأوصاه أبوه بكتمان رؤياه خوفاً عليه من كيد إخوته وحسدهم.

ثم تذكر السورة تآمر إخوته عليه حيث ألقوه في البئر للتخلص منه، وكيف التقطه بعض المسافرين وباعوه عبداً رقيقاً في مصر وكان الذي اشتراه وزير الملك الملقب بالعزيز فرباه في قصره. وأدى جمال يوسف بعد أن بلغ سن الشباب إلى افتتان امرأة العزيز به، وقد راودته عن نفسه بعد أن غلّقت الأبواب، ولكن يوسف أبى الاستجابة لرغباتها وفرّ منها فلحقت به حيث وجدا زوجها لدى الباب. واتهمت امرأة العزيز يوسف بمحاولة اغتصابها ولكن شاهداً من أهلها شهد ببراءة يوسف لما رأى من قرائن تدفع التهمة عنه، ولكن سريان هذه الفضيحة في أوساط مجتمع المدينة أدى إلى سجن يوسف تغطية لما يشاع وبإيعاز من امرأة العزيز. ولبث يوسف في السجن بضع سنين، وكان في السجن فتيان رأى كل منهما رؤيا في منامه فسألا يوسف عن تأويل ما رأيا، ففسر يوسف لهما حلمهما وتحقق التأويل الذي ذكره يوسف، فكان أن قُتل أحد السجينين لثبوت ما اتهم به وبرىء الآخر الذي كان ساقي الملك وعاد إلى منصبه.

ورأى الملك رؤيا في منامه أزعجته فجمع أشراف مملكته وسألهم عن تأويل ما رأى فعجزوا عن تفسيرها وقالوا أضغاث أحلام، لكن ساقي الملك تذكر ما جرى بينه وبين يوسف من تفسير منامه وقد صدق في تأويله فطلب من الملك أن

يرسله إلى من عنده علم بتأويل المنامات.

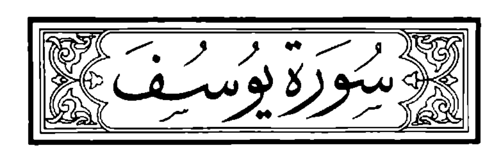
توجه الساقي إلى السجن واجتمع بيوسف وعرض عليه رؤيا الملك ففسرها يوسف بمجيء سبع سنين خصبة يعقبها سبع سنين قحط، وبيّن له كيف يتصرف فيها.

علم الملك بمنزلة يوسف في العلم كما أدرك براءته مما نُسب إليه بعد أن أعاد التحقيق في التهمة الموجهة إليه بناء على طلب يوسف، فاستدعاه الملك إلى قصره وولاه السلطة والحكم والإشراف على خزائن التموين في مصر.

ثم أصابت مصر والبلاد المجاورة سنوات قحط وسمع يعقوب أن الطعام موفور في مصر فأرسل أبناءه إلى مصر ليشتروا حاجتهم من الطعام. وحين دخل إخوة يوسف عليه في ديوانه عرفهم دون أن يعرفوه، فكتم عنهم ذلك ثم طلب منهم إحضار أخيه الأصغر بنيامين معهم في رحلتهم الثانية مع إغرائهم بزيادة الكيل لهم. امتثل إخوة يوسف لما طلب أخوهم منهم بعد أن أعطوا والدهم المواثيق والعهود بالمحافظة عليه ولكن يوسف دبّر حيلة لاستبقاء أخاه بنيامين عنده باتهامه بالسرقة وأخذه رقيقاً مقدمة لإحضار والده إلى مصر.

وفي رحلة الإخوة الثالثة إلى مصر بناء على طلب يعقوب للبحث عن يوسف ومحاولة الإفراج عن بنيامين وشراء الطعام الذي هم بحاجة إليه تعرّف الإخوة على أخيهم يوسف فدعاهم إلى إحضار أبويه وأهلهم جميعاً للسكن في مصر. فحضر أبواه وإخوته وأهلهم جميعاً إلى مصر ولما دخل الإخوة على يوسف أجلس يوسف أبويه على العرش بجانبه وسجد الإخوة ليوسف سجود تحية وتعظيم وتحقق الحلم الذي رآه يوسف في صغره: **﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾**.

وهذه السورة جاءت بأسلوب سلس ممتع، تحمل البشرى للمعذبين في الأرض بأنه لا بد من الفرج بعد الضيق، ومن اليُسر بعد العسر، إضافة إلى ما تتضمنه من الكثير من الدروس والعبر والفوائد الجمة.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ
تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ
هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ
يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ
رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ
فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ
يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ
رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾

شرح المفردات

المبين: أي الظاهر في كونه من عند الله.

نقصُّ عليك: نحدثك ونبين لك يا محمد.

فيكيدوا لك كيداً: فيحتالوا لإهلاكك حسداً.

يجتبيك: يصطفيك ويختارك

تأويل الأحاديث: تفسير المنامات وبيان ما تؤول إليه.

يوسف يقص على أبيه رؤياه في المنام.

تبدأ هذه السورة بالتنويه بالقرآن الكريم الذي يشتمل على أحسن القصص:

﴿الَر[١] تِلكَ آياتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ تلك: إشارة إلى آيات هذه السورة، والمراد بالكتاب هنا: القرآن. والمعنى: تلك الآيات الواردة في هذه السورة هي آيات من القرآن الكريم ﴿المبين﴾ أي الظاهر في كونه من عند الله، الواضح في معانيه وأهدافه بحيث لا تشتبه على العقلاء حقائقه.

﴿إنَّا أنزلناه قُرْآناً عَربيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ أي إن الله أنزل هذا القرآن بلغة العرب كي يفهموه ويحيطوا بمعانيه، ويستعملوا عقولهم لفهم ما يتضمنه من المعاني والحكم والهدى.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ القَصَصِ﴾ أي إن الله يروي عليك يا محمد أحسن القصص ومنها: قصة يوسف الجامعة لأمور الدين والدنيا، والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية، الملأى بالدروس والعظات ﴿بِمَا أوْحَيْنَا إلَيْكَ هَذَا القُرآنَ وإن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلينَ﴾ أي بما أنزلنا إليك هذا القرآن عن طريق الوحي، وقد كنت من قبل أن نُوحي إليك هذا القرآن لا تعرف هذه القصة لأنها لم تخطر ببالك ولم تصل إلى سمعك لأنك أمّي لا تقرأ ولا تكتب.

ثم شرع الله يقص علينا قصة يوسف في الآيات التالية:

﴿إذْ قَالَ يُوسُفُ لِأبيه يا أبَتِ إنِّي رَأيْتُ أحَدَ عَشَرَ كوْكباً وَالشَّمْسَ والقَمَرَ رأيْتُهُم لي سَاجِدينَ﴾ أي اذكر يا محمد، أو أيها المخاطب حين قال يوسف لأبيه

(١) هذه الحروف المقطعة التي وردت هنا وفي بعض السوَر هي على سبيل لفت الأنظار والتنبيه على إعجاز القرآن، فكأن الله يقول: ها هو القرآن مؤلف من كلام من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومن نفس الحروف الهجائية التي تكتبون فإن كنتم في شك من كونه منزلاً من عند الله فأتوا بمثله فإن لم تستطيعوا فاعلموا أنه كلام الله حقاً، وهناك تفسيرات أخرى لهذه الحروف ذكرنا بعضها في مطلع سورة الرعد.

يعقوب: إني رأيت في منامي أحد عشر كوكباً من كواكب السماء ورأيت كذلك الشمس والقمر ساجدين لي. والسجود هو وضع الجبهة على الأرض، وقد سجدوا ليوسف سجود إعظام وتحية لا سجود عبادة، وكان السجود تحية وتعظيماً للرؤساء في العصور الماضية، وقد يراد بالسجود في الآية الانحناء بالرأس وانخفاضه نحو الأرض تحية له.

وكان إخوة يوسف أحد عشر(١) فجاءت هذه الرؤيا تخبر بأنهم سيسجدون ليوسف مع والديه المشار إليهما بالشمس والقمر. فالشمس رمز لأبيه، والقمر رمز لأمه أو بالعكس.

والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين طهرت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه. وقد روي عن عائشة زوجة النبي ﷺ أنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(٢).

وفي حديث آخر عن النبي ﷺ: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»(٣).

ولقد كانت هذه الرؤيا التي رآها يوسف في منامه إشعاراً بما سيؤول إليه أمره من عزّ ورفعة، وأن أسرته ستكون مرؤوسة له وهو رئيسها، لذا حذره أبوه يعقوب من أن يقُصّ رؤياه على إخوته حتى لا يناله الأذى منهم:

﴿قال يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلى إِخْوتِكَ فيكيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ أي يا بني لا

---

(١) كان ليعقوب اثنا عشر ولداً: رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، ديساكر، زبولون، من زوجته ليئة. دان، نفتالي، من زوجته بلها. جاد، أشير، من زوجته زلفا. يوسف، بنيامين، من زوجته راحيل. وعلى هذا يكون يوسف وبنيامين شقيقين من الأب والأم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

تخبر إخوتك برؤياك التي رأيتها في المنام التي تشير إلى علو شأنك في المستقبل فيحتالون للإضرار بك حسداً ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على الإضرار بك.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي ومثل ما رأيت نفسك في المنام سيداً مطاعاً كذلك يصطفيك ربك ويختارك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي ويعلمك ربك تأويل ما يراه الناس في منامهم وبيان ما يتحقق منها في اليقظة، ويجوز أن يُراد بالأحاديث معاني كتب الله وما خفي وما اشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله أو ما جاء به رسل الله من الوحي ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي يتمم فضله بالنبوة والمُلك والرياسة ﴿كما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيك مِن قَبْلُ إِبراهيم وَإسْحَق﴾ وعبّر عنهما بأنهما أبوا يوسف مع أن إبراهيم جد أبيه وإسحق جده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء وللمبالغة في إدخال السرور إلى قلبه، وإطلاق لفظ الأب على الجد معروف عند العرب ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إن ربك عليم بمن هو أهل للاصطفاء، ومن هو أهل للنبوة، والله حكيم في تدبير أمور خلقه.



﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾
ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ
قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ
ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا
لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا
يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟
بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ
أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

شرح المفردات

آيات للسائلين: دلائل على قدرة الله ومواعظ للناس للذين يرغبون في الوقوف على حقائق هذه القصة.

عصبة: تطلق على الجماعة من الرجال عشرة فصاعداً إلى الأربعين

ضلال مبين: خطأ بيّن واضح في إيثارهما علينا.

اطرحوه أرضاً: ألقوه في أرض بعيدة عن العمران بحيث لا يستطيع العودة.

يخل لكم وجه أبيكم: يخلص لكم حبه وإقباله عليكم.

غيابة الجب: قاع البئر المظلم وأطلق عليه غيابة لأنه يغيب ما فيه عن العيون.

السيارة: المسافرون.

وإنا له لناصحون: ونؤكد لك يا أبانا أننا ننصح يوسف بما فيه خيره ونشفق عليه.

يرتع: الرتع هو التنعم بالأكل والشرب الهنيء.

ليحزنني: يجعلني حزيناً.

مؤامرة الإخوة على يوسف

وبعد أن بيّن لنا القرآن رؤيا يوسف في المنام وبشارة والده له بالنبوة شرع يقص علينا قصة يوسف مع إخوته:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عِبَرٌ وعظات للسائلين عنها والراغبين في معرفتها من المشركين واليهود. كما أن في قصة يوسف علامات واضحة على صدق نبوة محمد ﷺ حيث قص عليهم قصة يوسف وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب بأرفع الأساليب البلاغية، مع اختلاف في كثير من وقائعها عما جاء في كتب اليهود عن يوسف في العهد القديم.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ إذ قال إخوة يوسف فيما بينهم: إن يوسف وأخاه بنيامين ـ شقيقه من أبيه وأمه ـ أحَبُّ إلى أبينا منَّا، مع أننا جماعة أقوياء يشتد بنا ساعده، ونحن أنفع له منهما فما باله يؤثرهما بمحبته ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إن أبانا في تصرفه هذا قد ضلّ عن طريق العدل والمساواة ضلالاً واضحاً لا يخفى على أحد ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ في الكلام هنا حذف، أي قال قائل منهم: اقتلوا يوسف ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ أو ألقوه في أرض مجهولة بعيدة بحيث لا يستطيع العودة ويموت فيها غريباً ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي يخلص لكم وجه أبيكم فَيُقبلُ بمحبته عليكم ولا يلتفت إلى غيركم، والمراد بذكر الوجه تصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه عليه ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ وتكونوا من بعد هذا الذنب ـ قتل يوسف أو نفيه ـ قوماً تائبين إلى الله فيقبل الله توبتكم.

هذه القسوة من الإخوة قابلتها رأفة من أحدهم: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ أي قال هذا الأخ: لا تقتلوا يوسف قتلاً مباشراً، ولا تلقوه في أرض بعيدة يتعرض فيها للموت ولكن ألقوه في بعض نواحي البئر

فوق الماء بحيث يغيب عن الأنظار، وهذا البئر كان معروفاً يقصده كثير من المسافرين ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ ينتشله حياً من البئر بعض المسافرين ﴿إِنْ كُنتُم فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم مصرين على إبعاد يوسف عن أبيكم، وهذا ما أجمع رأيهم عليه.

وبعد أن استقر رأي الإخوة على ذلك ذهبوا إلى أبيهم وراحوا يحتالون لأخذ يوسف معهم بعد أن شعروا أن أباهم لا يأمنهم عليه، وخاطبوه بأسلوب يبعث الثقة والطمأنينة في قلبه:

﴿قَالُوا يا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أيّ شيء يا أبانا يجعلك لا تأمنّا على أخينا يوسف ونحن له مخلصون نريد له الخير ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أرسله معنا غداً إلى المراعي ليتمتع بالأكل الطيب، ويلعب من ألوان اللعب النافع لبدنه، وإننا لحريصون على المحافظة عليه، ودفع الأذى عنه.

أجابهم أبوهم: ﴿قَالَ إِنِي لَيَحْزُنُني أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي إني لأشعر بالحزن إذا ذهبتم به بعيداً عني لشدة شفقتي عليه ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وأنتم عَنْهُ غَافِلونَ﴾ وأخاف أن يفترسه الذئب وأنتم غافلون عنه برعي الغنم واللعب.

﴿قَالوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لخَاسِرُون﴾ لئن: هي اللام الموطئة للقسم. أي والله لئن أكله الذئب وهو معنا في هذه الرحلة، ونحن جماعة أقوياء، إن حدث هذا الذي تخشاه فنحن لخاسرون لكل ما يجب الحرص عليه، أو لخاسرون سمعتنا وكرامتنا بين قومنا، أو مستحقون لأن نهلك لأنه لا جدوى ولا نفع من حياتنا.

استسلم الأب أخيراً لإلحاح أبنائه ووافق على طلبهم ليتحقق قَدَرُ الله الذي كتبه على يوسف.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً
يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ
مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾
وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

شرح المفردات

أجمعوا: عزموا واتفقوا.

عِشاءً: أول الظلام إلى ثلث الليل.

نستبق: نتبارى في الركض وفي رمي السهام.

متاعنا: ثيابنا وأمتعتنا.

بمؤمن لنا: بمصدّق لنا في ما نقوله.

بِدَمٍ كَذِبٍ: أي مكذوب فيه.

سوّلت لكم أنفسكم: زيّنت وحسّنت لكم أنفسكم.

فصبر جميل: الصبر الجميل هو الصبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله.

إلقاء يوسف في البئر

ويتابع القرآن فيذكر ما فعله الإخوة بيوسف حيث ألقوه في البئر، وما قدموا من عذر لأبيهم:

﴿فَلَمَّا ذَهَبوا بِهِ واجْمَعُوا أن يَجْعَلُوه في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ فلما أخذ أبناء يعقوب يوسف معهم من بعد ما أذن لهم أبوهم بذلك ومضوا به بعيداً عنه نفذوا ما أجمعوا عليه رأيهم وألقوه في البئر بدون رحمة ولا شفقة **﴿وَأَوْحَيْنَا إلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُم لا يَشْعُرُونَ﴾** أي وأوحى الله إلى يوسف وهو في البئر عن طريق جبريل عليه السلام أو عن طريق الإلهام القلبي بأنه سيخرج من السجن وأنه سيخبر إخوته

في مستقبل الأيام بما فعلوه به، وهم لا يشعرون بأنه هو يوسف، وذلك لما سيكون عليه من عز وسلطان ومنصب جليل، وإخوته في ذلة الحاجة والاستعطاف إليه، وفائدة ذلك تطييب لقلبه، وإزالة الهم والوحشة عنه وهو في البئر.

﴿وَجَاءوا أباهم عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ أي وجاءوا أباهم بعد أن أقبل الليل بظلامه يتصنعون البكاء، متظاهرين بالحزن والأسى لفقد يوسف.

تأمل كيف أنهم رجعوا إلى أبيهم في الليل لئلا يظهر عليهم أنه بكاء كاذب وليكونوا أقدر على الاعتذار، فلو جاءوا في وضح النهار لافتضحوا وظهرت أمارات تكلف الحزن على وجوههم.

﴿قالوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي إنا ذهبنا نتسابق في العدو ونتبارى في رمي النبال أيّها أبعد سهماً ﴿وتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فأكله الذِّئْبُ﴾ أي وتركنا يوسف عند ثيابنا وحوائجنا فأكله الذئب ونحن بعيدون عنه ﴿وما أنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾وإننا لنعلم أنك لن تصدقنا في ما أخبرناك به من أن يوسف قد أكله الذّئب حتى ولو كنا صادقين في ذلك لسوء ظنك بنا.

وزيادة في تمويههم ونفاقهم ﴿وَجَاءُوا عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ وأحضروا قميص يوسف إلى أبيهم وعليه دم يشهد بادعائهم حيث ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص، وقد وصف الكذب بالمصدر (بدم كذب) مبالغة، كأنه نفس الكذب كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه، ولكن فات هؤلاء الإخوة أن قميص يوسف الذي أحضروه لوالده كان سليماً من التمزق، ويروى أن يعقوب لمّا تأمل قميص يوسف ولم يجد فيه أثراً ولا خرقاً قال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل يوسف ولم يمزق عليه قميصه.

أمام هذه القرائن الدالة على كذب أبنائه قال يعقوب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكم أمراً﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم، بل قد زيَّنت لكم أنفسكم أمراً وحسنته لكم ففعلتموه ﴿فَصَبْرٌ جَميلٌ﴾ أي فصبر جميل أولى بي، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى فيه لأحد سوى الله ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلى مَا تَصِفُونَ﴾ والله هو المطلوب منه العون على ما تقولون في شأن يوسف كذباً.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ
وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ
دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ
مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ
وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

شرح المفردات

وجاءت سيارة: وجاءت جماعة من المسافرين.

واردهم: الوارد هو الشخص الذي يرد الماء ليستقي لرفقائه.

فأدلى دلوه: فأرسل دلوه في الماء ليملأه، والدلو إناء معروف يوضع فيه الماء.

أسرّوه بضاعة: أخفوه متاعاً للتجارة.

وشروه بثمن بخس: وباعوه بثمن قليل ناقص عن قيمته.

دراهم معدودة: دراهم قليلة.

وكانوا فيه من الزاهدين: أي في الثمن، غير راغبين في ما بأيديهم.

أكرمي مثواه: اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً.

مكّنّا ليوسف: جعلنا له مكاناً ثابتاً.

غالب على أمره: غالب على الأمر الذي يشاؤه سبحانه فلا يستعصي عليه مراده ولا يدفعه عنه أحد.

بلغ أشدّه: أي استكمل نموه البدني والعقلي.

حكماً: حكمة.

إخراج يوسف من البئر وبيعه رقيقاً في مصر

وبعد إلقاء يوسف في البئر الذي يقع في الأردن وقيل في بيت المقدس جاءت

رفقة تسرع في السير من بلاد الشام إلى مصر، ونزلوا قريباً من البئر الذي أُلقي فيه يوسف.

يقول الله تعالى: ﴿وجاءت سَيَّارَةٌ﴾ والسيارة هنا هم القوم المسافرون سمُّوا سيارة لمسيرهم في الأرض ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُم فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي فأرسلوا من يجلب لهم الماء من البئر ويستقي لهم، فألقى دلوه فيه ليملأه ماء فتعلق يوسف بالحبل فثقل الدلو على حامله، فأعانه رفقاؤه على جذب الدلو من البئر وهنا كانت المفاجأة ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ﴾ أي يا للخبر السار هذا غلام خرج من البئر ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً﴾ وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من البئر مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للبئر واعتبروه عرضاً من عروض التجارة القابلة للبيع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ هنا وعيد لإخوة يوسف، فالله عليم بما صنعوا في شأن يوسف وما وقع فيه من المحن ﴿وشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ معدودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِين﴾ وهؤلاء المسافرون باعوا يوسف في مصر بثمن منخفض دون قيمته، وكان الثمن دراهم قليلة، وكانوا في يوسف من الزاهدين الراغبين في التخلص منه لخوفهم أن يدركهم أهله فينتزعوه منهم.

﴿وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامرأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْواهُ﴾ وكان الذي اشتراه من أفراد القافلة وزير الملك الملقب «بالعزيز» فأرسله إلى بيته وأوصى امرأته به خيراً وقال لها: أحسني مُعَامَلَتَهُ وأكرميه بحيث يكون كواحد منا ولا يكون كالعبيد والخدم ﴿عَسَى أن يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ رجاء أن ينفعنا في مصالحنا الخاصة أو نتبناه ونتخذه ولداً، قال ذلك لأنه كان عقيماً لا ولد له.

أمر «العزيز» زوجته بذلك لما توسم في يوسف بفراسته فيه من الخير والنباهة وحسن الخلق ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأَرضِ﴾أي وكما أنقذنا يوسف من البئر ومن كيد إخوته فقد جعلنا له مكانة كريمة في قلب «العزيز» الذي اشتراه ومكانة رفيعة في أرض مصر حيث عُرِفَ فيها بأخلاقه الرفيعة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ﴾ أي ويعلمه الله تفسير الأحلام وما يتحقق منها ﴿واللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ والله غالب على أي أمر يريده لا يحول أحد دون تحقيقه ولا رادّ لقضائه،

ولا يغلبه شيء، فإذا أراد الله أن ينفذ شيئاً قال له كن فيكون ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله يفعل ما يشاء في خلقه، ولا يعلمون الغيب وما يحمل في طياته من الأسرار والحكم التي هي بعلم الله وحده.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ ولمّا استكمل يوسف قوّته الجسدية والعقلية ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ والحكم الذي أعطاه الله ليوسف قد يراد به الحكم بين الناس، أو الحكمة، أو النبوة. أما العلم فالمراد به الفقه في الدين ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الذي أعطاه الله ليوسف على إحسانه يجزي الله المحسنين على إحسانه.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

شرح المفردات

وراودته: المراودة الرفق في الطلب، والمقصود طلبت منه أن يضاجعها.

هيت لك: أقبل، وبادر، لك أقول هذا.

معاذ الله: أعوذ بالله مما دعوتني إليه.

إنه ربي: إن زوجك هو سيدي الذي رباني.

أحسن مثواي: أحسن إكرامي ومقامي عنده فلا أخونه.

همّت به: عزمت وأصرّت على مضاجعته.

وهم بها: شرع يدفعها عن نفسه.

لولا أن رأى برهان ربه: أي حجة ربه التي منعته من ضربها وإيذائها.

امرأة العزيز تغري يوسف بالزنا

كان يوسف عليه السلام على قسط كبير من الحسن والوسامة وكان وجوده في بيت وزير الملك سبباً في اضطرام مشاعر الحب في نفس زوجته نحو يوسف. ولما كان هو فتاها أي خادمها، ورهين إشارتها، هان عليها ما ينتابها من الشوق والعشق نحوه وشرعت تغريه بنفسها وتعرض عليه محاسنها وهنا يقص علينا القرآن ما جرى بينها وبين يوسف:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِه وغَلَّقَتِ الأَبْوابَ﴾ أي وطلبت امرأة العزيز من يوسف أن يضاجعها بعد أن أوصدت الأبواب. والقرآن لم يذكر اسمها ستراً لها وابتعاداً عن التشهير بها بل قال: ﴿التي هو في بيتها﴾ وبعد أن أوصدت الأبواب أقبلت على يوسف ﴿وَقَالَتْ هيْتَ لَكَ﴾ أي هلمَّ وأقبِل فقد هيّأتُ لك نفسي. أجابها يوسف: ﴿قالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي إني ألجأ إلى الله وأستجير به مما دعوتني إليه، وكيف أرتكب ذلك وزوجك هو سيدي الذي أحسن مقامي عنده وأكرمني؟ فلا أخونه في عرضه.

وقد يراد بـ (ربي) الله، أي إن الله هو ربي الذي تولاّني بلطفه وإحسانه فلا أقترف ما حرّمه الله من ذنب ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ إنه لا يفوز الذين يظلمون الناس بالغدر والخيانة ويعصون الله بفعل الزنا.

ولقد ظن يوسف أن ما وعظه سيعيد إليها صوابها، وتمتنع عن خيانة زوجها ولكنها لم تَرْعَوِ وأقبلت بكليتها على يوسف، وهو ما حكته الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ هَمَّت بِهِ﴾ أي همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم على المعصية ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ومالت نفس يوسف إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ميلاً وحديث نفس دون عزم وقصد، فالهمّ منه مجرد خاطر لم يخرج إلى العزم، وهذا اللون من الهمّ لا يخلُّ بمقام النبوة، ولذلك قيل: عصمه الله من الفعل ولم يعصمه من الهمّ ﴿لَوْلا أَنْ رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها وأقدم عليها، وبرهان ربه

هو حجته الباهرة الدالة على قبح الزنى وسوء سبيله، والمراد بالرؤية اليقين بذلك، وقيل: إن برهان ربه هو تذكّره عهد الله وميثاقه الذي أخذه على عباده بطاعته وعدم معصيته.

هذا وإن الهمّ هو القصد، فوجب أن يحمل في حق الزوجة وفي حق يوسف على القصد الذي يليق به، فالظاهر في هذه المرأة القصد إلى تحصيل اللذة الجنسية التي سعت إليها، واللائق بيوسف الذي اصطفاه الله بالنبوّة هو القصد إلى زجر العاصي عن معصيته، ولو كان همّه كهمها أي إقباله كإقبالها عن عزيمة وقصد لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين.

ولقد قيل في ذلك أيضاً: همّت امرأة العزيز بالمعصية وهمَّ يوسف بالفرار منها.

وقيل ﴿ولَقَدْ هَمَّت به﴾ أي ولقد همّت امرأة العزيز بجذب يوسف إلى نفسها ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي همّ بها يدفعها عن نفسه وكاد يضربها لمزيد إصرارها على مخالطته ﴿لَوْلا أنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لولا أن رأى حجته اليقينية تصرفه عن ضربها لأنها آوَتْهُ وأكرمته، ولو ضربها لكان ذلك حجة عليه لأنها تقول: راودني فمنعته فضربني. ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ﴾ وهكذا ثبتنا يوسف على الطهر والعفاف لنصرف عنه سوء الخيانة ومعصية الزنى ﴿إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾ إنه من عباد الله الذين أخلصوا الطاعة لله، أو بمعنى إنه من عباد الله الذين اصطفاهم بالنبوة واختارهم على غيرهم.

ولقد صوّر القرآن موقف الإغراء من المرأة مع يوسف تصويراً واقعياً وبأسلوب مهذب بعيداً عما يخدش الحياء أو يجرح الشعور الإنساني، مبيناً عظمة الترفع عن الزنا ومقاومته بما هو أمثولة للرجال عندما يقعون في مثل هذه المواقف الحرجة من الإغراء بالفاحشة وطغيان الشهوة.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ
قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا
قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨
يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ
ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾

شرح المفردات

واستبقا الباب: أي تسابقا للوصول إلى الباب.

قدّت قميصه: قطعته وشقته.

من دُبُرٍ: من خلف.

ألفيا: وجدا.

راودتني عن نفسي: طلبتني بإغراء للجماع.

من قُبُلٍ: من أمام.

كيدكن: الكيد هو المكر والاحتيال والوسيلة التي يتذرع بها الكائد للوصول إلى غرضه.

الخاطئين: المذنبين العاصين.

براءة يوسف من التهمة الباطلة

وأمام هذا الإغراء من امرأة العزيز ليوسف يطالعنا هذا المشهد الذي يظهر براءته:

﴿واسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَّت قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي تسابقا إلى الباب، يوسف وامرأة العزيز كل يريد أن يصل إليه قبل الآخر، هو ليهرب منها يبغي الخلاص،

وهي لتمنعه من الخروج وتحمله على الاستسلام لها. ولمّا سبقها يوسف إلى الباب جذبت قميصه جذبة قوية ترتّب عليها قطع القميص وشقه من الخلف لأنه كان هو الهارب وهي الطالبة له ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ﴾ أي وهما في هذه الحالة وَجَدا سيدها وهو زوجها عند الباب، والتعبير عن الزوج بالسيد كان من عادات القوم في ذلك الزمان، أو الإيحاء بأن الزوج له القوامة على المرأة وهو بالنسبة لها كسيدها. ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قالت لزوجها حين رآهما على تلك الحالة من التدافع: ما جزاء هذا الذي دخل إلى مخدعي وأراد بزوجتك السوء إلا السجن أو العذاب الشديد الإيلام على فعلته الشنيعة هذه؟

بهذه التهمة الباطلة أرادت امرأة العزيز أن تبرىء نفسها، وفي الوقت نفسه تهدّد يوسف وتظهر له مقدرتها على سجنه وتعذيبه طمعاً في أن يستجيب لرغباتها.

ولكن يوسف دافع عن نفسه: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتني عَنْ نَفْسِي﴾ أي زوجتك هي التي عملت على إغرائي وإغوائي بارتكاب الفاحشة معها فامتنعت وهربت منها.

ولا ريب أنه في هذه الحالة التي يتبادلان فيها التهم يحتاج الأمر إلى تفكير وروية ومشاورة، والذي شاوره الزوج هو رجل من أهل المرأة اشتهر بالرأي الثاقب كان في القصر حينئذ أو جاء لتوه، وهذا الشاهد أبدى رأيه على ما رأى من قرينة وحجة تشهد ببراءة يوسف:

﴿وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ أي سمعنا أن قميص يوسف قد شُقَّ، فإن كان قميصه شُقَّ من قُدّامه فقد صدقت في ادعائها لأن هذا يعني أن يوسف كان مندفعاً نحوها يريد اغتصابها وهي تدافع عن نفسها فتمزق القميص في يدها من قدّامه، فتكون في هذه الحالة صادقة ويوسف من الكاذبين في ادعائه البراءة.

وتابع هذا الشاهد قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي وإن كان قميص يوسف شُقَّ من خلف فهذا يعني أنه كان يحاول الفرار والتخلص منها وهي تلحق به وتمسك قميصه من خلف لتمنعه من الهرب، وهذا يعني أنها كاذبة في اتهام يوسف بالاعتداء عليها، وهو من الصادقين بأنها هي التي راودته عن نفسه.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ﴾ فلما نظر الزوج إلى قميص يوسف رآه مشقوقاً من خلف ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أي قال لامرأته: إن اتهامك ليوسف بأنه أراد بك سوءاً ناشيء من مكركن أيتها النسوة ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي إن مكركن يا معشر النسوة عظيم بالرجال.

هذه الآية تبين مدى كيد النساء بالرجال، وقد دلت وقائع الأيام عبر التاريخ على مصداق ذلك، فالنساء بما حباهن الله من جمال وفتنة ودهاء لهن القدرة على تنفيذ أصعب المهمات التي يعجز عنها الرجال.

وفي الأحوال التي تحصل فيها الفتن والمشاكل بين الناس قيل في ذلك على لسان أحد القادة المشهورين (فتش عن المرأة).

وبعد هذه القرينة التي تشهد ببراءة يوسف التفت العزيز إليه وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي يا يوسف أعرض عما جرى ولا تتحدث به حتى لا تفضح امرأتي، ثم خاطب امرأته قائلاً: ﴿واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ﴾ أي توبي إلى الله واطلبي المغفرة مما رميت به يوسف من التهمة الباطلة، إنك كنت من الآثمين المتعمّدين لاقتراف الذنب، وكان العزيز رجلاً حليماً فاكتفى بهذا القدر من تأنيبها، وقيل إنه كان قليل الغيرة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ
شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ
عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ
ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا
تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ
رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

شرح المفردات

شغفها حباً: شق حبه شغاف قلبها وتمكّن منه، والشغاف حجاب القلب.

ضلال مبين: بُعْد واضح عن الصواب.

بمكرهن: باغتيابهن لها وسوء مقالتهن.

أعتدت لهنّ متكأً: هيّأت لهن ما يتكئن عليه من الوسائد.

أكبرنه: أعظمنه ودهشن من جماله الرائع.

قطّعن أيديهن: جرحن أيديهن بالسكاكين لفرط ذهولهن ودهشتهن من جماله.

حاشَ لله: تنزيهاً لله أن يكون هذا المخلوق من جنس البشر.

فاستعصم: امتنع وأبى

الصاغرين: الأذلاء المقهورين.

وإلاّ تصرف عني كيدهن: وإن لم تحفظني من شرّ إغوائهن وخداعهن.

أَصْبُ إليهن: من الصبوة وهي المَيْل إلى شهوات النفس.

من الجاهلين: من أهل السفاهة والطيش.

فصرف: فأبعد.

نسوة في المدينة ينبهرن بجمال يوسف

وما جرى بين امرأة العزيز ويوسف تسرّب خبره إلى نسوة من نساء المدينة، لأن نساء القصور يجدن دائماً من يتطوع بإذاعة أخبارهن عن طريق الخدم فعبن عليها سلوكها مع خادمها:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ[١] تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي قال نسوة من نساء المدينة على سبيل النقد والتشهير: إن امرأة العزيز صاحبة المكانة العالية تراود فتاها ـ أي خادمها ـ عن نفسه وتطلب منه مواقعتها، وأنه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ والشغاف جلدة رقيقة محيطة بالقلب، أي أن حبها له صار محيطاً بقلبها كما يحيط الشغاف بالقلب حتى تكاد لا تنظر إلى غيره، هو تعبير بليغ يبين مدى العشق الذي أصاب قلب امرأة العزيز نحو يوسف ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي إننا لنراها بفعلها هذا في خطأ بالغ وبعد عن الصواب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ فلما سمعت امرأة العزيز اغتيابهن إياها في شأن حبها ليوسف وسوء كلامهن فيها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعتهن إلى وليمة في بيتها ﴿وأَعْتَدَتْ لهن مُتَّكَئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ وهيأت لهن وسائد يتكئن عليها كما أعطت امرأة العزيز كل واحدة من ضيوفها سكيناً حادة لتقطع به ما يحتاج إلى القطع كالفواكه واللحم. «فالإنسان حين يجلس على كرسي مريح بوسائد لا بد أن يسترخي وفي استرخائه تضعف يقظته الذهنية، فلو صودف أنه استرخى وبيده سكين لقطع الفواكه وغيرها وحدث أمر طارىء فوق الحسبان أدى ذلك إلى انفعال نفسي وبحركات لاشعورية يغرس السكين بيده بدل غرسها بالفاكهة أو باللحم»[٢]. وفي هذا الجو من الاسترخاء والرفاهية قالت امرأة العزيز ليوسف ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ تريد بذلك أن يفاجئهن بجماله وهن يأكلن الطعام ويمسكن السكاكين لقطع

---

(١) عزيز مصر بحسب اصطلاح المصريين قديماً هو حاكمها والمتصرف فيها بعد مليكها.
(٢) باختصار عن كتاب «يوسف» تأليف: د. زاهية الدجاني.

ما يحتاج إلى القطع، فخرج يوسف عليهن وهن في تلك الحالة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي لمّا رأت النسوة يوسف وجماله الفتان وحسنه الفائق أعظمنه فذهلن عن أنفسهن ودهشن من شدة حسنه وجماله فجرحن أناملهن بما بين أيديهن من السكاكين لفرط انبهارهن، وفي التعبير عن الجرح بالقطع دليل على كثرة جراحهن. وهذه طبيعة الإنسان فقد تصل به المحبة إلى درجة لا يشعر فيها بما حوله ويتصرف تصرفات غير متزنة، فلنحذر من تلك المحبة التي تورد إلى المهالك.

وأمام جمال يوسف الباهر: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي قلن مندهشات: تنزيهاً لله سبحانه عن صفات النقص، والعجز عن خلق مثل هذا الجمال المثالي ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾أي ما هذا الذي نراه بشراً بل هو ملك من الملائكة، يردن بهذا وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال، وقد جرت العادة في تشبيه كل إنسان متناهٍ في الجمال بالمَلك، وكل متناهٍ في القبح بالشيطان. وفي وصف يوسف بأنه ملك كريم إعطاء العذر لامرأة العزيز في ما فعلت لروعة جمال يوسف وتأثيره القوي على النساء.

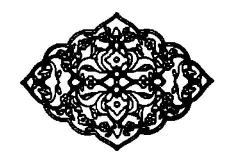
هنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها فتوجهت بالخطاب إليهن ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي هذا هو الفتى الذي وجّهتنّ اللوم لي في حبه ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي وأؤكد لكم أنني أنا التي طلبت منه أن يمكّنني من نفسه بشتى المغريات فامتنع وأبى، ثم قالت مهدِّدة إياه: ﴿وَلَئِن لَمْ يَفْعَل مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي ولئن لم يفعل ما آمره به ولم يطاوعني في ما دعوته إليه ليسجنن عقوبة له ليكون من الأذلاء المهانين. وفي هذا دلالة على أنها كانت ذات سلطة وتأثير على زوجها بحيث كان لا يعصي لها أمراً.

والظاهر أن هؤلاء النسوة نصحن يوسف أن يوافق على ما تدعوه إليه سيدته وخوّفنه من مغبة عصيان أمرها وبلّغنه تهديدها إياه بالسجن.

أمام هذا التهديد السافر لجأ يوسف إلى ربه مستجيراً به: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدعونني إِلَيْهِ﴾ أي يا رب إن دخولي السجن الذي هدَّدتني امرأة العزيز به أحب إليّ وآثرُ عندي مما يدعونني إليه هؤلاء النسوة من ارتكاب الفاحشة ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عنّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي وإن لم تصرف عني يا رب كيدهن بتثبيتي على ما أنا عليه من العفة أُجبهن إلى ما طلبنه مني، والصبوة هي الميل إلى الهوى ﴿وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ وأكن من السفهاء الطائشين، وهذا الوصف فيه دليل على أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة وهذه الجهالة تؤدي إلى الإضرار به وإلى سخط الله عليه.

وأما قول يوسف عليه السلام ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ فيشمل امرأة العزيز وسائر النسوة والكيد منهن هو الترغيب له في طاعة سيدته، وتخويفه من مخالفة أمرها، ويحتمل أن كل واحدة منهن كانت تخلو به وترغبه في نفسها وتراوده عن نفسه.

﴿فاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فتفضَّل عليه ربه الذي يتولّى تربيته ويحوطه بعنايته فاستجاب له دعاءه وصرف عنه حيلهن للإيقاع به، وهذا يدل على أنه لا يقدر أحد عن الكف عن معصية الله إلاّ بتوفيق ولطف منه وأن الله سبحانه يستجيب دعاء المخلصين له ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ إن الله سبحانه يسمع دعوات الملتجئين إليه ويعلم أحوالهم وما يصلحهم.



﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ
مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ
ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا
بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ
إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن
نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

شرح المفردات

ثم بدا لهم: أي ظهر للعزيز وأهل مشورته

الآيات: العلامات الدالة على براءته.

أعصر خمراً: أي أعصر عنباً يصنع منه الخمر، سُمّي باسم ما يؤول إليه.

نبئنا بتأويله: أخبرنا بتفسير ما رأيناه في المنام.

ملة: دين.

إلصاق التهمة بيوسف وسجنه

ولمّا انتشرت أخبار امرأة العزيز مع يوسف في أرجاء المدينة رأى العزيز وأهل مشورته أنه لا يخلّصهم من العار ولا يكفّ ألسنة السوء عنهم إلاّ اتهام يوسف وإدخاله إلى السجن:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حِينٍ﴾ أي ثم ظهر لهم من بعد ما رأوا وعاينوا البراهين والشواهد الدالة على براءة يوسف أن يدخلوه إلى

السجن مدة من الزمن للتستر على هذه الفضيحة، وقد يكون سجنه بإيعاز من امرأة العزيز لأنها كانت مالكة لزمام زوجها ولا يعصي لها أمراً.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ ودخل السجن مع يوسف فتيان من خدم الملك[1]، أحدهما يعمل خبازاً للملك والآخر ساقي الملك الذي يقدّم له الشراب، وقد رأى كل واحد منهما في منامه رؤيا قصها على يوسف لما توسَّما فيه من القدرة على تفسير الأحلام ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ اي قال ساقي الملك: إني رأيت في منامي أنني أعصر عنباً ليتحول إلى خمر بعد حين ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رأسي خبزاً تأكلُ الطَيْرُ مِنْهُ﴾وقال الآخر وهو الخباز: إني رأيت في منامي أني أحمل فوق رأسي طبقاً فيه خبز، وهذا الخبز تأكل منه الطير ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحسِنِينَ﴾ أخبرنا يا يوسف بتفسير ما رأيناه في المنام إننا نراك ممن يحسنون تفسير الأحلام، ومن المحسنين الذين يريدون الخير للناس، ووصفه بذلك لأنه كان يخفف من بلواهم ويعينهم في حوائجهم في السجن.

وبعد أن آنس يوسف منهما الثقة به قال لهما: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ اي لا يأتيكما طعام من خارج السجن لتأكلاه إلا أخبرتكما ﴿قَبْلَ أن يَأْتِيَكُمَا﴾ قبل أن يصل إليكما عن صفته وجنسه ومقداره وكيفيته فيجدانه كذلك، وفي ذلك إيماء إلى أنه أوتي علم الغيب ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا

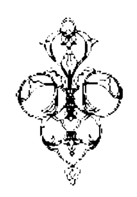
---

(١) روي أن جماعة من أشراف مصر أرادوا اغتيال الملك فأغروا خباز الملك وساقيه بالمال على أن يدسّا السمّ في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك، ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك، وقبل الخباز الرشوة ودسّ السم في طعام الملك، فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك فأبى، فأطعم من ذلك الطعام لدابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما. ثم أفرج عن ساقي الملك بعد ظهور براءته وقتل خباز الملك لثبوت اشتراكه في المؤامرة على حياة الملك.

عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أي ذلكما الذي عرفته من تفسير المنامات والإخبار بالمغيّبات هو بعض ما علمني ربي بالوحي والإلهام ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يؤمنونَ بِاللَّهِ﴾لأني تركت دين قوم لا يؤمنون بوحدانية الله بل يشركون معه آلهة أخرى، والمراد من تركه لدينهم أنه لم يدخل فيه أصلاً ليتركه بعد ملابسته ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي لا يؤمنون بالبعث ولا بالثواب والعقاب من الله على أعمالهم يوم الجزاء.

وتابع يوسف قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبْراهيمَ وإسحٰق وَيَعْقُوبَ﴾ أي واتبعت دين آبائي الذين أرسلهم الله لهداية الخلق وهم: إبراهيم، ومن بعده ولده إسحق، ثم حفيد إبراهيم يعقوب الذي هو والدي وسماهم يوسف آباءه لأن الأجداد بمنزلة الآباء.

﴿مَا كَانَ لَنَا أن نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما صح ولا استقام لنا نحن معشر الأنبياء أن نجعل لله شريكاً،فكل ما في الكون مخلوق له، وآيات شاهدة على وحدانيته فهو مستحق وحده للعبادة ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ أي ذلك المنهج من توحيد الله هو من فضل الله علينا حيث خصَّنا بالنبوة، وأوحى لنا، وهو أيضاً من فضل الله على الناس حيث وفقنا لإرشادهم إلى عبادة الله وحده واتباع شريعته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ ولكن أكثر النَّاس لا يشكرون الله بعبادته وحده واتباع رسله، ولا يشكرون الله على نعمه الجزيلة التي لا تحصى.



﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ
ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ
أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن
رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ
مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ
فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

شرح المفردات

أأرباب متفرقون: آآلهة متعددون.

القهّار: مبالغة في قاهر، والقاهر من صفات الله لما له على عباده من غلبة وسلطان.

سلطان: حجة وبرهان

ذلك الدِّين القيِّم: ذلك الدين المستقيم والمقوِّم لأمور الناس المصلح لها.

فيسقي ربه خمراً: فيسقي سيده الملك خمراً.

تستفتيان: تطلبان الفتيا.

اذكرني عند ربك: أخبر سيدك الملك بشأني وعرِّفه حالي.

فأنساه الشيطان ذِكْرَ ربه: أي أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك.

بضع سنين: البضع هو العدد من الثلاث إلى التسع.

يوسف يدعو إلى عبادة الله وحده

وقبل أن يجيب يوسف على طلب السجينين بتفسير مناميهما، اغتنمها فرصة لوعظهما ودعوتهما إلى عبادة الله وحده مبيناً بطلان تعدد الآلهة التي كانت شائعة في مصر آنذاك:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي يا صاحبيّ ورفيقيّ في السجن أخبراني: أعبادة عدد من الأرباب متفرقين في ذواتهم وصفاتهم خيرٌ أم عبادة الله الواحد «القهار» لكل من غالبه. والمراد بالأرباب المتفرقين الآلهة المختلفة في الذوات والصفات والأشكال التي كان يصورها لهم الكهنة من رسوم منقوشة وتماثيل منصوبة في الهياكل والمعابد.

فتعدُّد الآلهة يشوّش عقل الإنسان ويرميه في متاهات الخرافات والشعائر الوهمية، كما يفرّق شمل الجماعات الإنسانية، وذلك من جرّاء تأليه كل طائفة آلهة تختلف عن الأخرى، بينما عبادة الله الواحد والخضوع له وحده تحرر الإنسان من الأوهام وتوحّد قلوب الناس.

﴿مَا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي ما تعبدون من غير الله من أصنام وغيرها إلا أسماء لا حقيقة لها مجردة من كل فاعلية وقوة أطلقتم أنتم وآباؤكم عليها صفة الألوهية، وما هي في الحقيقة إلا خيالات وأوهام لا وجود لها، وما هي بآلهة تخلق وترزق، ولا تضر ولا تنفع فكيف تجعلونها آلهة؟ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما أنزل الله من حجة تشهد بألوهيتها، وليس لديكم برهان على وجوب عبادتها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ﴾ أي ما القضاء والحكم في شأن العقائد والعبادات والأمر والنهي إلاّ لله وحده الذي لا شريك له ولا إلّه غيره ﴿أَمَرَ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ إِيَّاهُ﴾ أمر أن لا تعبدوا غيره سبحانه فهو وحده المستحق للعبادة ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ذلك الدين المستقيم القويم الذي تهدي إليه الأدلة والبراهين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة بسبب جهلهم وإضلالهم من قِبَلِ رجال دينهم فتوجهوا إلى غير الله بالدعاء والعبادة.

يوسف يفسّر منامي صاحبيه

وبعد أن وعظ يوسف رفيقيه في السجن ودعاهما إلى عبادة الله وحده شرع في تفسير مناميهما فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّه خَمْراً﴾ أي يا صاحبيّ اللذين عرفتهما في السجن أمّا أحدكما الذي رأى في منامه أنه يعصر خمراً فسيخرج من السجن بريئاً ويسقي سيده الملك خمراً ﴿وَأَمّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وأما الآخر الذي رأى في منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير فيقتل ثم يُصلب وتأكل الطير من رأسه.

والجدير بالذكر أن يوسف لم يعيّن من هو الذي يسقي الملك خمراً ولا من هو الذي سيُصلب وإنما اكتفى بقوله: «أما أحدكما.. وأما الآخر» تحرجاً من مواجهة صاحب المصير السيىء بمصيره، وإن كان في تعبيره ما يشير إلى مصير كل منهما ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الّذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي تم الأمر وأحكم في ما كنتما تطلبان الفتوى فيه وهو إخبار لما علمني ربي إياه. وقد صدق يوسف في تفسير مناميهما وتحقق كل ما أخبرهما به.

ثم قال يوسف لصاحبه السجين الذي علم أنه سينجو: ﴿وَقَالَ لِلّذي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرني عِنْدَ رَبِّك﴾ أي أيها الساقي بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك، اذكرني عنده وأخبره بأني مظلوم قد حبست بلا ذنب اقترفته لعلَّه يخرجني من السجن ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ولكن الشيطان أنساه تذكير سيده الملك بقضية يوسف بسبب شواغل الخدمة المتابعة في القصر وبسبب فرحه بنجاته، وهذه طبيعة كثير من الناس إذ ينسون أصدقاءهم عند الرخاء ﴿فَلَبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنينَ﴾ أي فكانت ثمرة هذا النسيان أن مكث يوسف في السجن بعد خروج صاحبه السجين ـ ساقي الملك ـ بضع سنين والبضع من الثلاث إلى التسع، وقد اشتهر أن يوسف مكث في السجن سبع سنين، ومكوثه هذه المدة الطويلة كان لأمر أراده الله وقدّره.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

شرح المفردات

عجاف: هزيلات (جمع عجفاء).

الملأ: الأشراف، والمراد بهم الكهان والحكماء.

أفتوني في رؤياي: فسروها لي وبينوا عاقبتها ومآلها.

تعبرون: تعرفون تأويل الرؤيا.

أضغاث أحلام: أحلام مختلطة باطلة.

ادّكر بعد أُمّةٍ: تذكر بعد مدة من الزمن.

الأحلام: المنامات.

أنا أنبئكم بتأويله: أنا أخبركم بمن عنده علم بتفسير المنامات.

رؤيا الملك الغامضة

وبعد تلك السنين الطوال التي قضاها يوسف في السجن ظلماً شاءت عناية الله فيه أن يخرج من السجن ويتربّع على أعلى المناصب الدنيوية، وإذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب. فقد رأى الملك في منامه رؤيا أفزعته وأثارت اضطرابه فجمع أشراف مملكته من الكهنة والحكماء والأمراء وقال لهم:

﴿وَقَالَ المَلِكُ إِنّي أَرَى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي إني رأيت في منامي سبع بقرات سمينات تأكلهن سبع بقرات هزيلات نحيلات ﴿وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ورأيت أيضاً في منامي سبع سنابل خضراء قد

امتلأت حبًّا ورأيت إلى جانبها سبع سنابل يابسات قد بلغت حدّ الحصاد فالْتَوت السنابل اليابسات على السنابل الخضر حتى غلبتها ولم يبق من خضرتها شيء ﴿يَا أَيُّها الملأُ أَفْتُوني في رُؤْيَايَ إن كُنْتُم للرؤيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي يا أيها الأشراف من قومي فسّروا لي رؤياي وبيّنوا لي مآلها إن كنتم تعرفون تأويلها معرفة سليمة.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ قال هؤلاء الأشراف جواباً على رؤيا الملك[1]: هذه أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها، وأضافوا قائلين: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ ونحن لا نعلم تأويل الأحلام المختلطة الكاذبة، يريدون بذلك أنهم أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة.

﴿وقَالَ الذي نَجَا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وقال أحد السجينين الذي نجا من القتل وهو ساقي الملك وكان حاضراً إذ ذاك، وقد تذكر بعد مدة طويلة من الزمن براعة يوسف في تفسير الأحلام ﴿أَنَا أُنَبِّئُكم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا فابعثوني إلى من عنده العلم الصحيح بتفسيرها، ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد تفسير رؤيا الملك، فوافقوا على طلبه.

(١) هذا الملك الذي يعنيه القرآن هو (الريان بن الوليد) كما ذكر مؤرخو العرب، وهو من العمالقة (الهكسوس) الذين احتلوا الكثير من الأراضي المصرية من سنة ١٩٠٠ ق.م. إلى سنة ١٥٢٥ ق.م. ثم طردهم المصريون. وقد عبّر القرآن عن رئيس مصر الذي كان في عهد يوسف بلفظ (الملك) ولم يعبر بلفظ (فرعون) إلاّ في عهد موسى، لأن هذا الملك (الريان بن الوليد) لم يكن من القبط بل كان من البدو الغرباء. وقد كان في اصطلاح المصريين الأقباط أن لا يطلقوا كلمة (فرعون) إلا على من كان من أهل مصر وليس دخيلاً أو مستعمراً. وهذا من البراهين القوية التي تشهد بأن القرآن وحي من عند الله إذ لو كان من تأليف بشر لاتبع ما اشتُهر عند أهل الكتاب من تسمية ملك مصر في زمن يوسف باسم (فرعون). وقد أخطأ بعض المفسرين بتسمية هذا الملك باسم فرعون.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ
يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

شرح المفردات

الصدّيق: الكثير الصدق.

لعلّهم يعلمون: أي لعلّهم يعرفون ما أنت عليه من العلم.

سبع سنين دأباً: أي تزرعون القمح سبع سنين متابعات بلا انقطاع دائبين كعادتكم.

مما حصدتم فذروه في سنبله: فما حصدتم من القمح فاتركوه في سنابله.

سبع شداد: سبع سنين كلها جدب وقحط.

يأكلن ما قدمتم لهن: أي تستهلكون في هذه السنوات القاحلة ما ادخرتموه في سني الخصب.

مما تحصنون: مما تدخرون من البذور.

يُغاث الناس: ينقذهم الله من الشدة بنزول المطر فتجود الأرض بالزرع والثمر.

يعصرون: يعصرون ما شأنه العصر كالعنب والزيتون.

يوسف يفسر رؤيا الملك

ذهب ساقي الملك إلى السجن واجتمع بيوسف بعد هذه المدة الطويلة التي فارقه فيها، ولعلّه قدّم له العذر والأسف على نسيان إثارة قضيته أمام الملك، ثم بيّن له الغاية من الاجتماع به:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي يا يوسف البالغ الغاية في الصدق في أقوالك وأفعالك وفي تفسيرك للأحلام **﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ**

﴿وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة، وإنما قال ليوسف ﴿أَفْتِنَا﴾ بصيغة الجمع للإشعار بأن هذه الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له شأن ومكانة بين الناس ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُم يَعْلَمُونَ﴾ أي لكي أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى من بيدهم السلطة فيعملوا بمقتضى هذه الرؤيا ويعلموا مكانتك وبراعتك في تفسير الأحلام فينتبهوا إلى قضيتك ويخلّصوك مما أنت فيه، وإنما قال يوسف ﴿لَعَلِّي أَرْجِع إِلَى النَّاسِ﴾ بأسلوب الرجاء لأنه رأى عجز الحكماء والكهنة عن تفسير هذه الرؤيا فخاف أن يعجز يوسف أيضاً عن تفسيرها ويرجع إلى الملك خائباً.

أجاب يوسف على هذه الرؤيا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ أي تزرعون أرضكم في السنين السبع الآتية زراعة مستمرة على حسب عادتكم فيها ﴿فَمَا حَصَدتُّم فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾[1] فما حصدتم من القمح فاتركوه في سنابله لئلا يفسد ويسوّس ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تأكلونَ﴾ أي إلا القليل منه المعدّ للأكل فإنه لا بُدّ لكم من فصله وإخراجه عن سنبله وتركِ الباقي في سنبله لتخزينه.

وفي وصيّة يوسف إياهم إرشاد لهم أن يقتصدوا في استهلاكهم للقمح إلى أقصى حدٍّ ممكن. ثم تابع يوسف قائلاً:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي ثم يأتي بعد سنين الرخاء سبع سنين أخرى، شديدة صعبة على الناس لما فيها من الجدب والقحط ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُم لَهُنَّ﴾ أي إنكم تأكلون في هذه السنين السبع المجدبة ما كنتم قد ادّخرتم من

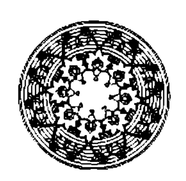
(١) فذروه في سنبلة: تتفق هذه الآية مع ما وصل إليه العلم الحديث من أن ترك الحب في سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يبقيه محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة فمن أين لمحمد هذه الحقائق العلمية التي جاء بها عن ربه، فلم تذكرها التوراة حتى يقال إنه اقتبسها منها؟ إنها ولا ريب معجزة علمية للقرآن تشهد بأنه وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً.

السنابل في سنوات الرخاء ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ إلا القليل الذي تدخرونه وتخزنونه للزراعة.

ولقد فسّر يوسف البقرات السبع السمينات، والسنبلات السبع الخضراء بالسنين الخصبة التي ستأتي على مصر، وفسّر البقرات الهزيلات والسنابل اليابسة بالسنين المجدبة التي تأتي عقب سنيّ الخصب.

والجدير بالذكر أن يوسف لم يقتصر على تفسير هذه الرؤيا، بل تجاوز ذلك إلى وصف العلاج للأزمة الخانقة التي ستأتي على مصر من تخزين الحب في سنبله والاقتصاد في استهلاك ما يأتيهم من الغلال. وبهذا التأويل من يوسف أنقذ الله مصر من مجاعة دامت سبع سنين بفضل ما ألهمه الله بتفسيرها على هذا النحو.

ثم تابع يوسف قوله أخيراً ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلك عَامٌ فِيه يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي ثم يأتي بعد هذه السنين السبع المجدبة القاحلة عام فيه يغاث الناس بالمطر وفيه تجود الأرض بالغلاّت والنعم، وفيه يعصرون ما يقبل العصر من الثمار والحب كالعنب والزيتون والسمسم وقصب السكر.



﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا
بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا
خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن
سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ
ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

شرح المفردات

ما بال النسوة: ما حالهن.

ما خطبكن: ما شأنكن وأمركن.

حاشَ لله: تنزيه لله وتعجبٌ من نزاهة يوسف وعفّته.

حصحص الحق: بان وظهر بعد كتمانه.

كيد: الكيد هو تدبير الشر خفية.

الملك يحقق في المؤامرة على يوسف

نقل الساقي إلى الملك تأويل الرؤيا التي فسّرها يوسف، وعلم أن تأويلها ينسجم مع رؤياه مما يدل على رجاحة عقل مفسرها، فأمر باستدعائه إلى قصره ليستوضحه بعض التفاصيل وهذا ما حكاه الله بقوله:

﴿وَقَالَ المَلِكُ ائتوني بِهِ﴾ في الكلام هنا حذف تقديره: وقال الملك بعد أن سمع من ساقيه تفسير يوسف لرؤياه أحضروه لي **﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾** فلماء جاء رسول الملك إلى يوسف يبلغه رغبة الملك في لقائه بادره يوسف قائلاً: **﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ﴾** أي ارجع إلى سيدك الملك واطلب منه أن يحقق في المؤامرة التي حيكت ضدي ويستجوب النسوة اللاتي حضرن وليمة امرأة العزيز وجرحن أيديهن في تلك الوليمة ليشهدن في

القضية التي سجنت بسببها، لأنهن كن شاهدات على إقرارها بأنها هي التي راودته عن نفسه ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إن ربي العالم بخفايا الأمور هو عليم بما دبّرن من الحيل للإيقاع بي.

لم يتلهف يوسف إلى الخروج من السجن ومقابلة الملك مع ما في ذلك من بشرى بالفرج له، بل تمهّل وآثر البقاء في السجن حتى تبرأ ساحته من الجريمة التي ألصقت به ظُلماً وعدواناً، ويُظهر للملك حقيقة المؤامرة التي حيكت ضده، وعند ذلك يقابل الملك مرفوع الرأس وافر الكرامة.

رجع رسول الملك بهذه الرسالة من يوسف فلم يغضب الملك بسبب عدم مثول يوسف بين يديه، بل قابل ذلك برحابة صدر، فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز في قصره للتحقيق في المؤامرة على يوسف وخاطب الملك هؤلاء النسوة:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي ما الأمر الهامّ الذي حملكن في الماضي على أن تراودن يوسف عن نفسه؟ هل وجدتنّ منه استجابة لما طلبتن؟ وهل داعبكن حتى تجرأتم على ذلك؟ خاطب الملك جميع النسوة وكان قصده بذلك امرأة العزيز ليكون أستر لها، أو لأنهن نصحن يوسف بطاعة امرأة العزيز في ما طلبت من الفاحشة.

أجابت النسوة بصوت واحد ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله وتعجباً من نزاهة يوسف وعفته ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، ما علمنا عليه من فعل سيىء صدر منه. أمام هذه الشهادة الجماعية من النسوة بطهارة ويوسف وعفته وبراءته من التهمة المنسوبة إليه رأت امرأة العزيز أن تعترف بالحقيقة والواقع لأنها إذا بقيت مصرّة على رأيها فلربما شهد عليها هؤلاء النسوة بما اعترفت لهن سابقاً بأنها هي التي راودته عن نفسه وهددته بالسجن، أو لعلّ ضميرها قد استيقظ بعد هذه المدة الطويلة، هنا ارتفع صوتها: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي قالت: الآن ظهر الحق وتبيّن ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أنا التي حاولت إغراءه وفتنْتُه ودَعَوْتُه إلى الفاحشة ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وإنّ يوسف صادق في قوله دفاعاً عن نفسه: هي راودتني عن نفسي.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ذلك الذي اعترفت به ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال غيبته وهو في السجن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يهدي كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾ والله لا يرشد إلى الحق ولا يسدد أمر من يدبّر الشر للغير خفية بل يبطله. ثم أكدت اعترافها بما صدر منها من إثم قائلة:

﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ وما أبرّىء نفسي مع ذلك مما صدر مني من الخيانة والبهتان حين قلت في حق يوسف ما قلت إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلاّ نفساً رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربي كثير الغفران لمن تاب عن ذنبه رحيم له بقبول توبته.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

شرح المفردات

أستخلصه لنفسي: أي أجعله خاصاً بي أفوّض إليه أمر مملكتي.

مكين أمين: صاحب مكانة رفيعة مؤتمن على كل شيء.

حفيظ: أي حافظ ما استودعتني من أموال المملكة.

مكنّا ليوسف في الأرض: قوّينا مركزه في مصر.

يتبوأ منها: التبوء هو اتخاذ المكان للنزول به.

يتقون: يقون أنفسهم ما حرّم الله ويطيعونه في ما أمر.

يوسف أمين على خزائن مصر

وبعد أن ثبت للملك براءة يوسف من التهمة الباطلة وإيثاره السجن على ما دعته إليه امرأة العزيز وصاحباتها إلى الفاحشة، قال لرجاله:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي أحضروا لي يوسف أتّخذه خالصاً لنفسي في تدبير أمور مملكتي، وإنما قال الملك ذلك لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره وإحسانه إلى أهل السجن ووفائه لسيده وثباته على المحن.

وإذا نظرنا إلى تصرف الملك في المرة الأولى عندما بلغه علم يوسف في تأويل الرؤيا وحسن تدبيره للأمور الصعبة قال: ﴿ائتوني به﴾ ولكن عندما تحقق من براءة يوسف ونزاهته قال: ﴿ائتوني به أَسْتَخْلِصْه لِنَفْسي﴾ وهذا يبين مدى الاحترام والإعجاب الذي شعر به الملك نحو يوسف ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ هنا يوجد حذف لبيان سرعة الإتيان به. والمعنى: فأتوا بيوسف فلمّا حضر إليه وجرى بينهما الحديث وشاهد منه الملك ما شاهد من عِلْمٍ وفطنة وصدق ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ قال الملك: إنك اليوم لدينا ذو مكانة ومنزلة رفيعة وأنت مؤتمن على كل شيء، عند ذلك قال يوسف وقد رأى ثقة الملك به:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ قال يوسف للملك: اجعلني والياً على مصادر خيرات أرض مصر وهي الأمكنة التي تختزن فيها الأموال والمؤن والغلال ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ إني حفيظ لها من التبذير فلا أصرفها في غير مصارفها وإني عليم بوجوه التصرف فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أي كما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من البئر وخلّصناه من السجن كذلك جعلنا له مكانة وسلطة في الأرض بنفوذ رأيه بحيث لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ينزل منها حيث يشاء ويتصرف فيها بما يريد ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ فنخصّ برحمتنا من نشاء من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان والإنعام عليه ﴿وَلَا

﴿نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحسِنِينَ﴾ ولا نضيع ثواب أعمالهم الحسنة في الدنيا ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ولثواب الآخرة أفضل من ثواب الدنيا حيث يجازيهم الله بالنعيم الدائم في الجنة ﴿لِلَّذِينَ آمنوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وهذا الجزاء الحسن هو للذين صدَّقوا بوحدانية الله وكانوا يتقون الشرك بالله وما نهى عنه.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ
أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ
عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ
لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

شرح المفردات

وهم له مُنكرون: أي لا يعرفونه لبعد عهدهم به وظنهم أنه هلك.

ولمّا جهَّزهم بجهازهم: أعطاهم كل ما يحتاجون إليه من المؤن والزاد لسفرهم.

أوفي الكيل: أجعل الكيل وافياً كافياً.

خير المنزِلين: خير المضيفين.

فلا كيل لكم عندي: فلا أكيل لكم بعد ذلك ما تحتاجونه من طعام.

سنراود عنه أباه: سنحتال على أبيه ونفاوضه في ذلك.

لفتيانه: لخدمه وأتباعه.

اجعلوا بضاعتهم في رحالهم: اجعلوا ثمن ما اشتروه من طعام في أوعيتهم.

إذا انقلبوا إلى أهلهم: إذا عادوا إليهم.

يوسف يتعرّف على إخوته

تحقق تأويل يوسف لرؤيا الملك بمجيء السنوات السبع الخصبة فرعاها يوسف بتدبيره وخزن الفائض من الغلات، ثم جاءت بعدها السنوات السبع المجدبة فحصل جوع وقحط ولا سيما في البلاد المجاورة لمصر كفلسطين.

وقد أصاب يعقوب وأولاده كما أصاب غيرهم ضيق شديد في عيشهم، وسمع يعقوب من بعض الرحّالة بوجود الخير والرزق في مصر، فطلب من أولاده جميعاً باستثناء بنيامين أن يذهبوا إلى مصر وزوَّدهم ببضاعة وفضة لشراء ما يحتاجون إليه من الحنطة.

دخل الإخوة إلى مصر فرأتهم العيون الراصدة من قبل يوسف وقد كانوا في مظهر وعدد يلفت الأنظار فأخذوهم إلى بلاطه: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرون﴾ لقد عرف يوسف إخوته من ملامحهم وكلامهم وأزيائهم الخاصة بأهل فلسطين، أما الإخوة فلم يعرفوا يوسف بعد هذه المدة الطويلة من إلقائه بالبئر وقد تغيّرت ملامحه بعد أن أصبح شابًا وتزيّا بزيّ الحكام، وما عليه من مظاهر السلطان، وتغير اسمه، لأن ملك مصر أطلق عليه اسم (صفنات فعنيح) ومعناه قوت الأحياء.

أكرم يوسف وفادة إخوته وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه، ثم استدرجهم بعد ذلك في الحديث فعرف منهم على وجه التفصيل كل أحوالهم.

ويروى أنهم لما دخلوا عليه سألهم أسئلة تنمّ عن جهله بهم فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا لشراء حاجتنا من الطعام المدَّخر لديكم، قال يوسف: لعلَّكم جواسيس علينا؟ قالوا: معاذ الله... قال: كم ولداً أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر ولداً فهلك منا واحد وبقي واحد مع أبينا ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِم﴾ ولمّا جهّز يوسف إخوته بالطعام من الحنطة وأعطاهم كل

ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف للدواب ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ ابيكُم﴾ وكان يوسف يدرك تماماً أنهم متى نقلوا هذه الجملة لأبيهم استغرب ودهش وظن أن الرجل الحاكم على مصر يرمي إلى هدف ما من هذا الطلب، وإلاّ فمن عرّفه أن لهم أخاً من أبيهم، فيوسف أراد أن يفهم أباه أن في الأمر سرّاً فيتحرك ذهنه، ويشرع في البحث عن ذلك السر. وهذا ما فهمه يعقوب وهو أن ابنه يوسف في مصر بدليل أنه قال لأولاده في رحلتهم الثالثة إلى مصر: ﴿يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فتحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخيهِ﴾.

وبعد أن طلب يوسف من إخوته إحضار بنيامين معهم في رحلتهم المقبلة قال لهم: ﴿ألا تَرَوْنَ أنّي أوفِي الكَيْلَ وأنَا خَيْرُ المُنزِلينَ﴾ الا تشاهدون كيف أني أعطي الكيل وافياً لكم ولكل الناس بالعدل وأنا أفضل المكرمين لضيوفه ﴿فَإِن لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ فإن لم تأتوني بأخ لكم من أبيكم ـ وهو بنيامين الذي بقي في فلسطين مع أبيه ـ فلا طعام أبيعه لكم ولا تدخلوا بلادي مرة ثانية.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ قال إخوة يوسف سنحتال على أبينا ونجتهد لإحضاره لك وإنَّا لقادرون على ذلك.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم في رِحَالِهِمْ﴾ وقال يوسف لخدمه وأتباعه الموكَلين بالكيل: اجعلوا بضاعتهم التي اشتروا بها الطعام في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لَعَلَّهُم يَعْرِفُونَهَا إِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَى أهْلِهِم﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم، إذ إن بضاعتهم لا تُعرف بأنها قد ردّت إليهم إلاّ بعد تفريغ حمولتهم ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يعرفون فضله ويرجعون إليه. والقصد من ذلك هو تخوّف يوسف بأن لا يكون عند أبيه من المال ما يعطيه لأبنائه لمعاودة شراء الحنطة فيما بعد فيمتنعوا عن الرجوع إلى مصر فلذلك رد المال إليهم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ
أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا
كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ
أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ
مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ
ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾﴾

شرح المفردات

ولمّا فتحوا متاعهم: ولمّا فتحوا أوعيتهم التي فيها الحنطة.

ما نبغي: أيّ شيء نطلب من الإحسان بعد ذلك.

هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا: هذا ثمن ما اشتريناه قد رد إلينا والبضاعة هي فضة غير مضروبة وغيرها.

ونمير أهلنا: ونجلب لأهلنا الطعام، والميرة بكسر الميم وسكون الياء هي الزاد الذي يؤتى به من مكان إلى آخر.

حتى تؤتُوني موثقاً: حتى تعطوني عهداً مؤكداً بالقسم بالله.

يُحاط بكم: تُغلبوا، أو تهلكوا جميعاً.

فلمّا آتوه موثقهم: فلمّا أعطوه العهد المؤكّد بالقسَم.

وكيل: رقيب مطلّع.

الإخوة يطلبون من ابيهم إرسال بنيامين معهم

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم بما معهم من مؤن وطعام، فقصوا عليه ما جرى لهم مع وزير المال ـ أي يوسف ـ وما لقوا منه من حفاوة وتكريم وكيف أنه أنذرهم

بمنع الكيل عنهم إن هم عادوا إلى مصر ثانية ولم يكن معهم أخوهم بنيامين، وهذا ما حكاه الله عنهم فقال:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِم قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم في فلسطين قالوا له: يا أبانا لقد أنذرنا وزير المال بأن يمنع الكيل عنا إن لم نأت بأخينا معنا في الرحلة القادمة، والمراد بالكيل الحنطة التي يعطيهم إياها بالكيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ فأرسِلْ معنا أخانا بنيامين إلى مصر في الرحلة القادمة لنحصل بسببه على الطعام، وإننا له لحافظون من أن يصيبه مكروه.

ثم قال يعقوب لأولاده بعد إلحاحهم أن يرسل أخاهم بنيامين معهم: ﴿قَالَ: هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلاَّ كما أَمِنْتُكُمْ عَلَى أخيه مِنْ قَبْلُ﴾ أي هل تريدون أن أأتمنكم على ابني بنيامين، كما ائتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل، فإنه لم يحدث منكم ما يقتضي الاطمئنان على وعودكم التي وعدتموني إياها من قبل بالمحافظة على يوسف ونكثتم الوعد ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي فالله خير منكم ومن سواكم حافظاً وهو أرحم الراحمين بخلقه، ولذا فإني أفوّض أمر حفظه إلى رحمة الله سبحانه فهو لن يضيعه بل يرجعه إليّ سالماً.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولمّا فتح إخوة يوسف أوعيتهم التي وضعوا فيها طعامهم الذي جلبوه من مصر، وجدوا بجانبه بضاعتهم التي دفعوها ثمناً لهذا الطعام، وقد رُدَّت إليهم حيث وُضعت دون علمهم.

وبعد أن رأى الإخوة ذلك قالوا لأبيهم محاولين إقناعه بإرسال بنيامين معهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إِلَيْنَا﴾ أي يا أبانا أيّ شيء نطلب أفضل من هذا الإكرام؟ هذا ثمن الطعام وقد رد إلينا من حيث لا ندري ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ وبهذه البضاعة التي ردت إلينا نجلب لأهلنا بثمنها طعاماً آخر في حال رجوعنا إلى مصر ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ ونحفظ في رحلتنا هذه أخانا من المكاره. أكد الإخوة لأبيهم أنهم سيحفظون أخاهم بنيامين رجاء السماح بإرساله معهم إلى مصر ﴿وَنَزْدَادُ

كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ونزداد باصطحاب بنيامين معنا حمل بعير من الحنطة، لأن وزير المال كان يعطي كل إنسان حمل بعير فقط لا يزيده ولا ينقصه عند دفع ثمنه ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي ذلك كيل يسير عليه نظراً لسخائه وكرمه الذي عرفناه منه.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ﴾ قال يعقوب لأولاده بعد أن اقتنع بكلامهم: لن أرسل بنيامين معكم حتى تعطوني عهداً مؤكداً وتحلفون بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي أن تأتوني به وتُرجعوه لي سالماً إلا في حال أن تُغلبوا جَميعاً أو تهلكوا ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ فلما أعطوه عهودهم وأقسموا على ذلك قال يعقوب: ﴿قَالَ: اللَّهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾أي إن الله رقيب مطلع على من ينقض العهد.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٖ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

شرح المفردات

وما أغني عنكم من الله شيئاً: وما تدفع وصيّتي عنكم شيئاً أراده الله.

عليه توكلت: على الله اعتمدت وفوضت أمري إليه.

آوى إليه أخاه: ضمه إليه.

فلا تبتئس بما كانوا يعملون: فلا تأسف ولا تحزن بسبب ما صنعوا بي.

وصيّة يعقوب لأبنائه قبل رحيلهم إلى مصر

اطمأن يعقوب إلى العهد الذي التزم به أبناؤه للمحافظة على ابنه بنيامين، فوافق على إرساله معهم إلى مصر للتزود من الطعام، وقبل سفرهم أوصاهم يعقوب عند دخولهم مصر بأن لا يدخلوا من باب واحد بل من أبواب متفرقة، أي أن لا يدخلوا مجتمعين بل متفرقين، وكانت المدن في ذلك الزمن محاطة بأسوار لحمايتها من الأعداء، وفي هذه الأسوار أبواب للدخول والخروج منها، وهي مراقبة خشية تسلل الأعداء والجواسيس.

﴿وَقَالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ واحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لقد طلب يعقوب منهم ذلك لكي لا يلفتوا الأنظار عند دخولهم مجتمعين فيترامى إلى أذهان حراس المدينة أنهم جواسيس فيسجنونهم ويحولون بينهم وبين تحقيق مرادهم كما أن يعقوب خاف على أبنائه من الإصابة بالعين وحسد الحاسدين لما هم عليه من وسامة وطلعة بهية وقوة الجسد وهم أبناء أب واحد، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «إن العين حق»[1] وقال: «فلو كان شيء سَابَقَ القَدَر سبقتْهُ العَيْنُ»[2].

كما كان النبي يعوّذ الحسن والحسين بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامة[3] من كل شيطان وهامّة[4] ومن كل عين لامّة»[5].

وقد شهدت الوقائع والأخبار المتداولة بأثر العين من بعض الناس في إيصال الضرر للغير.

وتابع يعقوب قوله لأبنائه: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُم مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيءٍ﴾ أي لا

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه ابن ماجه.
(٣) كلمات الله التامة: كلام الله وهو القرآن لأنه لا نقص فيه.
(٤) هامّة: كل ذات سم يقتل.
(٥) أخرجه البخاري.

أستطيع أن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله لكم، فإن المقدور كائن، ولا ينفع حذر من قدر ﴿إِنِ الْحُكْمُ إلاَّ لِلَّهِ﴾ أي وما الحكم إلاّ لله وحده لا يشاركه فيه أحد ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت في أموري كلها ﴿وَعَلَيْه فَلْيَتوكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المتوكلون ويفوضوا أمورهم إليه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أمَرَهُمْ أبُوهُم﴾ أي وحين دخل أبناء يعقوب مصر من أبوابها المتفرقة كما أمرهم أبوهم ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما كان دخولهم المتفرق ليدفع عنهم الضرر أو السوء إن كان الله كتبه لهم ﴿إلاَّ حَاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ولكن وصيّته كانت لحاجة في نفسه أظهرها ووصّاهم بها لشدة حبه لهم، مع اعتقاده بأن كل شيء بقضاء الله وقدره ﴿وَإِنَّه لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ وإنّ يعقوب ذو علم علّمه الله إياه عن طريق الوحي ﴿وَلَكِنّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن أكثر الناس لا يعلمون أسرار القدر، وأن الحذر لا يدفع القدر، أو أنهم لا يعلمون ما خص الله به أنبياءه من العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أخَاهُ﴾ ولمّا دخل أبناء يعقوب على يوسف ومعهم بنيامين، أكرم يوسف وفادتهم وأحسن ضيافتهم، وجعل كل اثنين في حجرة وبقي بنيامين فضمه إليه ليشاركه في الطعام والمبيت، ثم كشف له عن هويته: ﴿قَالَ إِنّي أنا أخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أنّ يوسف أطلع أخاه على شأنه وما جرى له وعرّفه أنه أخوه وقال له: لا تحزن ولا تغتمّ بما كانوا يصنعون معك وما صنعوه بي، ثم أمره بكتمان ذلك عنهم، وأخبره بأنه سيدبّر حيلة تبقيه عنده مكرّماً معززاً مقدمة لإحضار أبيهم يعقوب وأهله جميعاً إلى مصر.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ
إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ
صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟
تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟
فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ
جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ
ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

شرح المفردات

جهّزهم بجهازهم: أي أعدّ لهم ما يحتاجون إليه من قمح وزاد للطريق وسائر لوازم السفر.

السقاية: إناء يُشرب فيه.

رحل أخيه: أثاثه ومتاعه.

أذّن مؤذّن: نادى منادٍ

أيّتها العِير: يا أصحاب القافلة.

صواع: هو نفس السقاية أي كل ما يشرب به أو يكال به.

ولمن جاء به حمل بعير: ولمن يعثر على صواع الملك يكافأ بحمل جمل من الطعام.

زعيم: ضامن مكافأته.

كِدْنا ليوسف: دبرنا ليوسف وهيأنا له أن يتصرف ذلك التصرف الخفي.

دِين الملك: أي حكمه وقانونه وشريعته.

يوسف يحتجز أخاه بنيامين

ثم بيّن القرآن الوسيلة التي دبرها يوسف لاستبقاء أخيه بنيامين عنده وهي

وصمه بالسرقة، وفي اتهام بنيامين اتهام لإخوته جميعاً بحيث يُذلّهم ويُدخل الكرب إلى قلوبهم، ويوقعهم في موقف حرج مع أبيهم انتقاماً منهم على عملهم السابق بإلقائه في البئر.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ولمّا جهّز يوسف إخوته بما يحتاجون إليه في سفرهم من زاد ومتاع وملأ أوعيتهم بالحنطة أمر يوسف أحد أعوانه المقرّبين له بأن يدسّ السقاية في متاع أخيه بنيامين خفية عن أعين الناس والسقاية إناء كان يشرب فيه وهو خاص بيوسف وكان من ذهب أو فضة. وقد كان يوسف يكتال به القمح في ذلك الوقت. وهذه السقاية أطلق عليها القرآن أيضاً اسم الصواع ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أي ثم نادى منادٍ: يا أصحاب هذه القافلة قفوا حتى يُحكم في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ارتاع الإخوة لهذا النداء واتجهوا إلى المنادين يسألونهم: ما الذي ضاع منكم وعمّ تبحثون؟

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ فأجابهم أتباع يوسف: نبحث عن صواع الملك والمراد بالملك هنا يوسف عليه السلام وإنما نُسِبَ هنا للملك لأن سلطته مستمَدة منه كما أن له المُلك والسلطة على مستودعات الغذاء، وقد آثروا التعبير بـ صواع الملك تهويلاً على السامعين ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي ولمن جاء بهذا الصواع أو دل على سارقه حِمْلُ جَملٍ من القمح زيادة على حقه كمكافأة له، وأكد على ذلك رئيسهم بقوله: وأنا بهذا الوعد ضامن وكفيل بأن أقدمه لمن جاءنا بصواع الملك.

أمام هذا الاتهام الفاضح لهم بالسرقة ردّ الإخوة على ذلك مستنكرين:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي والله ما جئنا إلى بلادكم لكي نفسد فيها، ولسنا ممن يوصف بالسرقة لأننا أولاد نبي الله يعقوب ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُم كَاذِبِينَ﴾ قال عمّال يوسف بناء على أوامره: فما جزاء من سرق صواع الملك في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعائكم البراءة من هذه التهمة وأن الصواع ليس في أوعيتكم؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ قال إخوة يوسف: جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسترقّ ـ أي يصبح عبداً ـ سنة لمن سُرِق منه ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء نعاقب السارقين في شريعتنا، قالوا ذلك ثقة منهم ببراءتهم من السرقة.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِم قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فبدأ عمّال يوسف بتفتيش أمتعة الإخوة العشرة قبل تفتيش متاع بنيامين بناء على أوامر يوسف لنفي التهمة عنه بأنه هو الذي دبّر هذه المكيدة ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا[1] مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ثم استخرج الصواع من متاع بنيامين بعد تفتيشه على مشهد منهم جميعاً، فلمّا رأى الإخوة ذلك نكّسوا رؤوسهم من الدهشة والذل، وأقبلوا على بنيامين باللوم والتأنيب. ثم يعقّب القرآن على ما حدث ببيان الحكمة من ذلك: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي مثل هذا التدبير الحكيم ألهمنا يوسف ما يوصله إلى غرضه وهو احتجاز أخيه بنيامين ليظل قربه، ففي مقابلة كيد إخوة يوسف كادهم الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ لأن يوسف ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه رقيقاً (أي عبداً) في شريعة ملك مصر التي تحكم على السارق بالضرب وتغريمه ضعفي ما سرقه ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله، وأن ما فعله يوسف كان إلهاماً من الله ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي يرفع الله درجات في العلم من يشاء من عباده ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وفوق كل عالِم هناك من هو أعلى منه علماً، يقول ابن عباس: فوق كل عالِمٍ عالِمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فهذه الآية توجيه لكل عالِم بالتواضع وعدم الغرور لأنه لا يخلو عالِم من وجود عالِم فوقه أرفع رتبة منه في العلم في اختصاصه أو في اختصاصات أخرى.

---

(١) استخرجها: الضمير لسقاية الملك الذي أطلق عليه الصواع. وقيلَ الصواع يذكّر ويؤنث.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي
نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ۝٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا
مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن
وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ
خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم
مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ
يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ
فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا
لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا
فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾

شرح المفردات

أسرّها: أخفاها.

لم يبدها: لم يظهرها.

استيأسوا: يئسوا يأساً تاماً.

خلصوا نجيًّا: انفردوا متناجين متشاورين.

موثقاً: عهداً.

ما فرطتم: قصرتم و (ما) زائدة.

فلن أبرح الأرض: فلن أغادر أرض مصر.

واسأل القرية: واسأل أهل القرية.

العِير: الجمال، والمقصود القافلة.

تهمة السرقة وأثرها على الإخوة

إن إخراج الصواع من أمتعة بنيامين أخجلت إخوته، فتنصّلوا باعتذار يبرىء ساحتهم ويلقي التهمة عليه وعلى أخيه من أمه وأبيه وهو يوسف لأن أمهما هي راحيل، فقالوا:

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي إن سرق بنيامين فقد سبقه في ذلك أخ شقيق له هو يوسف، فالسرقة هي خصلة مشتركة بينهما، قالوا ذلك وما دروا أن يوسف هو في مواجهتهم يسمع هذا الاتهام الباطل.

أما ما روي في شأن هذه السرقة فهو أن يوسف سرق وهو صغير صنماً لجده من أمه وكان هذا الصنم من ذهب وفضة فكسره وألقاه على الطريق، فعيّره إخوته بذلك. ويرى الحسن أنهم كذبوا على يوسف في ما نسبوه إليه، كما روي عن ابن عباس قوله: إن صح ذلك فإن من أخذ صنماً لكي يحطمه لا يُعتبر سارقاً شرعاً.

سمع يوسف ما قاله إخوته في حقه وفي حق شقيقه بنيامين فساءه ذلك ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي أخفى يوسف في نفسه امتعاضه من إخوته ولم يردّ عليهم كتماناً لأمره ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي واضمر في نفسه جواباً لو صرّح به لقال: أنتم أسوأ مكانة ومنزلة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ والله أعلم مني ومنكم بما تصفون به غيركم من الأوصاف التي يخالفها الحق وينكرها الواقع.

ولم يكن بد من محاولة لتخليص بنيامين من الرق ـ وهو عقوبة السرقة ـ تنفيذاً للعهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام والدهم يعقوب بالمحافظة على بنيامين، فصار الإخوة يستعطفون قلب يوسف ويثيرون شفقته: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي يا أيها السيد المبجّل إن أخانا هذا الذي أخذته لتسترقّه مدة سنة قد ترك من خلفه في بلادنا أباً طاعناً في السنّ مولعاً بحبه لا يستطيع فراقه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا

مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إن كان ولا بد أن تأخذ واحداً على سبيل الاسترقاق فخذ أحدنا بدلاً منه إننا نراك من المحسنين فقد أكرمتنا فيما مضى، فأتمم إحسانك بإطلاق سراحه.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ قال يوسف: نعوذ بالله ونبرأ إليه من أن نقع في الظلم باسترقاق غير من عثرنا المكيال عنده ﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ إننا إذا فعلنا ذلك نكون من الظالمين الذين يأخذون البريء بذنب المسيء.

ثم يصوّر القرآن نفسية الإخوة بعد أن رفض يوسف الإفراج عن أخيهم بنيامين: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ استيأسوا: يئسوا يأساً تامًّا، «فالسين والتاء للمبالغة». خلصوا: من الخلوص بمعنى الانفراد. نجيًّا: مصدر أطلق على المتناجين في السر. والمعنى: فلما يئسوا يأساً تامّاً من إطلاق سراح أخيهم بنيامين انفردوا عن الناس وراحوا يتناجون سرّاً ويتشاورون في أمرهم.

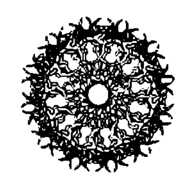
هذه الآية من جوامع الكلم فبكلمات قليلة وإيجاز محكم وصف الله حالة الإخوة وقد تملّكهم اليأس واعتزلوا الناس يتناجون سرّاً ويتشاورون وقلّ أن تجتمع الفصاحة والبلاغة في جملة قصيرة كهذا النص القرآني.

وحين اختلى الإخوة بعضهم ببعض لينظروا في أمرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُم قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ﴾ أي قال كبير إخوة يوسف في السنّ أو في العقل حين رآهم مجمعين الرأي على العودة إلى أبيهم دون بنيامين: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً مؤكداً حين حلفتم بالمحافظة على بنيامين وإرجاعه إليه سالماً ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُم فِي يُوسُفَ﴾ ومن قبل بنيامين كنتم قد قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا العهد مع أبيكم وقد قلتم لأبيكم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ ثم نكثتم العهد فكيف نعود إليه بعد كل ما جرى ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي بالعودة إليه

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ أو يحكم الله لي بالخروج من مصر على وجه لا يؤدي إلى نقض العهد مع أبي، أو بعد تخليص أخي من الرق بوسيلة من الوسائل.

ثم تابع كبير الإخوة قوله: ﴿ٱرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ أي عودوا يا إخوتي إلى والدكم وقولوا له إن ابنك بنيامين سرق صواع الملك ووضعه مع أمتعته في الجمل الخاص به فحكم عليه حاكم مصر طبقاً لشريعتنا بأن اتخذه رقيقاً سنة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إلاَّ بِما عَلِمْنَا﴾ وما شهدنا على أخينا إلا بما شاهدناه بأعيننا حيث وجُد الصواع في أمتعته ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك عندما أعطيناك عهودنا بأن نأتيك به معنا.

ثم طلب كبير الإخوة أن يقولوا لأبيهم بما يؤكد صدقهم ﴿واسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ التي كُنَّا فِيهَا﴾ أي فأرسل من تريد إرساله إلى أهل القرية في مصر التي حصلت فيها حادثة السرقة التي ذاع أمرها فإنهم سيذكرون لك تفاصيلها ﴿والْعِيرَ الَّتي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ واسأل أهل القافلة التي كنا فيها ـ وكانوا جيراناً ليعقوب ـ فقد رأوا ما جرى من احتجاز بنيامين وسبب أخذه رقيقاً ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾وإننا لصادقون في ما قلنا لك في شأن بنيامين.



﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن
يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

شرح المفردات

سوّلت: زيّنت وسهّلت.

فصبر جميل: الصبر الجميل هو الذي لا يكون معه ضجر ولا شكوى لأحد إلا لله.

يا أسفى: الأسف هو أشد الحزن على ما فات.

وابيضّت عيناه: أصابتها غشاوة بيضاء.

كظيم: كاتم للحزن والغيظ.

تالله: أي والله.

تفتأ: لا تزال.

حرَضاً: تصير مريضاً مشرفاً على الهلاك.

أشكو بثي: أشكو همي ومصيبتي.

فتحسسوا: التحسس طلب معرفة الشيء بالحواس.

ولا تيأسوا من روح الله: ولا تقنطوا من رحمة الله.

يعقوب فريسة الأحزان

عاد إخوة يوسف من مصر إلى أبيهم في فلسطين وأخبروه بما حدث وفق ما وصاهم به أخوهم الأكبر الذي ظل في مصر، فهيّج الخبر أحزانه، وضاعف من

آلامه لفقد ابنه الثاني بعد يوسف، فلم يصدّقهم وقال متهماً إياهم:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُم أَنفُسُكُمْ أَمراً﴾ أي ليس الحال كما تزعمون بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً في شأنه لتتخلصوا منه مثلما تخلصتم من أخيه يوسف من قبل، وإلاّ فما أدرى حاكم مصر أن السارق يُسترقّ لولا فتواكم ومؤامرتكم على أخيكم ﴿فَصَبْرٌ جَميلٌ﴾ أي أمام هذا الأمر لا حيلة لي إلاّ أن أصبر صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله ﴿عَسَى اللَّهُ أن يَأْتِيَني بِهِمْ جَميعاً﴾ راجياً من الله أن يأتيني بأولادي جميعاً.

فيعقوب لم يفقد الأمل في رحمة الله وعودة أبنائه الغائبين إليه، ومبعث رجائه تلك الرؤيا التي رآها يوسف في منامه وقد ذُكرت في مطلع هذه السورة، كما علم أن البلاء إذا اشتد وعظم جاء عقبه الفرج. ثم أتبع يعقوب قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي إن الله عليم بحالي، وهو الحكيم في ما يصنع ويدبّر.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾ وأعرض يعقوب عن بنيه وقال: يا حزني الشديد على يوسف. وإنما تجدد حزن يعقوب على يوسف لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب، فيعقوب كان يخفف من حزنه على فراق يوسف بقاء بنيامين بقربه، فلما غاب بنيامين عنه تجدد حزنه على يوسف، لأن فراق يوسف كان مصدر عذابه ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾[1] وذهب بصره من شدة الحزن والبكاء، فقد انقلب سواد عينيه بياضاً ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ فهو ممتلىء بالحزن ولكنه يخفيه عن الناس ولا يبديه لهم.

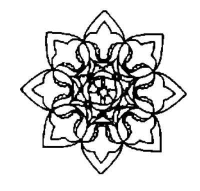
﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قال الإخوة لأبيهم: والله لا تزال تذكر

(١) وابيضت عيناه من الحزن: ينشأ من الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين وتحدث الجلوكوما أو ما يسمى عرفاً «بالمياه الزرقاء» فيزول صفاء القرنية وبريقها ويضعف البصر شيئاً فشيئاً حتى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء اللون. فانظر كيف وصف القرآن حالة يعقوب بما يؤيده العلم وما ذلك إلاّ أنه وحي إلَهي ليس من تأليف بشر.

يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي حتى تصبح مريضاً مشرفاً على الهلاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ أو تصبح في عداد الموتى، فخفف عن نفسك ولا تتلفها بالحزن والهمّ.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال يعقوب عقب لومهم له على إغراقه في الحزن: لا أشكو حزني العظيم إليكم بل إلى الله فهو القادر على كشف الغم عني ﴿وَأَعلَمُ مِنَ اللَّه مَا لا تَعلَمُونَ﴾ وأعلم من لطف الله ورحمته ما لا تعلمون، فأرجو من الله أن يرحمني ويلطف بي ولا يخيّب رجائي بردّ أبنائي إليّ.

﴿ يَا بَنِيَّ اْذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يا أبنائي اذهبوا إلى مصر وتعرّفوا على أخبار يوسف وأخيه بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ إنه لا يقنط من رحمة الله سبحانه إلا القوم الكافرون لجهلهم فضل الله على عباده.



﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾
قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟
أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ
لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

شرح المفردات

مسّنا: أصابنا.

الضر: الهزال من شدة الجوع وسوء الحال.

ببضاعة مزجاة: ببضاعة قليلة رديئة لنشتري بها.

فأوف لنا الكيل: أي أتممه ولا تُنقصه بحيث يكون زائداً عن الحق الذي لنا.

آثرك الله علينا: اختارك وفضّلك علينا.

لخاطئين: لمذنبين متعمّدين للإثم.

لا تثريب عليكم: لا عتب عليكم ولا لوم.

الإخوة يتعرفون على اخيهم يوسف

استجاب الإخوة لطلب أبيهم يعقوب في التحرّي والبحث عن يوسف وشقيقه بنيامين فعادوا إلى مصر للمرة الثالثة للبحث عنهما، وللحصول على القوت الذي هم بأمسّ الحاجة إليه، وقصدوا يوسف في ديوانه:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ[١] مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي ولمّا دخل الإخوة على يوسف قالوا له باستعطاف: يا أيها العزيز صاحب الجاه والسلطان أصابنا وأصاب أهلنا الفقر والجدب والهزال من شدة الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ وجئنا إليك من بلادنا ببضاعة زهيدة رديئة قليلة القيمة لا تصلح أن تكون ثمناً للطعام الذي نريده ﴿فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ﴾ فأعط لنا الكيل من الحنطة وافياً تامّاً كعادتك في ما سبق ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ وتصدَّق علينا زيادة على حقنا بما أنت أهل له من كرم ورحمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ﴾ إن الله يثيب المتصدّقين الذين يحسنون إلى الناس بالثواب الجزيل.

تأثر يوسف من حديثهم الذي ينمّ عن بؤسهم وتعاستهم وضيق حالهم فعزم على أن يُظهر حقيقته لهم ويكشف عن هويته حتى يضمهم وأهليهم إلى معيته في مصر ليعيشوا على الرغد والسعة، فبعث بطلب شقيقه بنيامين، ولمّا حضر توجّه يوسف إلى إخوته قائلاً: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم ما فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُم جَاهِلُونَ﴾ أي قال لهم على سبيل التذكير بخطاياهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه بنيامين من أذى وعدوان إذ ألقيتم يوسف في البئر وفرقتم بينه وبين شقيقه بنيامين وأدخلتم الحزن الشديد إلى قلب أبيكم في وقت كنتم تجهلون عاقبة ذلك العدوان؟ فأفعالكم ما هي إلا محض الجهل والسفه وليست أفعال العقلاء.

سمع الإخوة كلام يوسف ورأوا من خلاله أنه على إلمام ومعرفة بأحوالهم وأسرارهم وأمعنوا فكرهم في مغزى كلامه، ودققوا نظرهم في ملامح وجهه ورنة صوته فانتقلوا من دور الإنكار له إلى دور الشك في أن الذي يكلمهم هل هو يوسف ذاته أم لا؟ فتجرأ بعضهم وقال ﴿قَالُوا أَءِنَّك لأَنْتَ يُوسُفُ﴾ اي هل أنت يوسف؟ فأجابهم: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ قال: نعم أنا يوسف ثم أشار إلى أخيه بنيامين، وقال وهذا أخي ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي قد تفضّل الله علينا بكل خير في

(١) العزيز: لقب كان يُطلق على كل من ولاّه الملك الحكم والسلطة في مصر آنذاك.

الدنيا حيث جمعنا بعد فراق طويل، وبدّل أحوالنا من عسر إلى يسر ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ إنه من يتق الله فلا يعصيه، ويصبر على ابتلائه له، كما يصبر على الامتناع عما حرّمه الله عليه فلا يقربه، فهو إن فعل ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً بل يُعطيه ثواب عمله وَافياً لا نقص فيه.

هنا يتراءى في أذهان الإخوة مبلغ إساءتهم إلى يوسف فقالوا له معتذرين عما صدر منهم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي قال الإخوة: والله لقد فضّلك الله علينا بالتقوى والصبر وبكل الصفات الكريمة ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وما كنا في ما فعلناه معك إلاّ خاطئين متعمدين للذنب، خاطئين في تصوراتنا وأفكارنا نحوك.

فرد عليهم يوسف بقوله: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لا تأنيب عليكم اليوم ولا توبيخ فقد عفوت عما صدر منكم في حقي من أخطاء وآثام ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وأرجو من الله أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ والله أرحم الراحمين يرحم مَن تاب عن ذنبه ورجع إلى طاعته.

وبعد أن سأل يوسف عن والده وعلم أنه فقد بصره لشدة حزنه عليه أعطاهم قميصه وأمرهم بأن يطرحوه على وجهه فيرتدّ إليه بصره وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ وإنما علم يوسف ذلك بوحي من الله، وهذه معجزة من المعجزات يجريها الله على أيدي الأنبياء. ويمكن القول إن يعقوب ما أصابه العمى إلاّ من كثرة الحزن، فإذا أُلقي عليه قميص ابنه وعلم أنه حي فلا بد أن يحصل من هذا العلم بذلك صدمة قوية من شدة الفرح تؤدي إلى إعادة بصره إليه بإذن الله.

ثم دعا يوسف إخوته أن يُحضروا أهلهم جميعاً إلى مصر ليعيشوا في كنفه في عز ووفرة من الرزق ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُم أَجْمَعِينَ﴾ وكانوا نحو ثلاثة وتسعين أو ثلاثة وسبعين بين رجل وامرأة وأولاد.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ
ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا
خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

شرح المفردات

فصلت العير: أي فارقت القافلة أرض مصر.

تفنّدون: من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم في السن.

ضلالك: ابتعادك عن الصواب.

البشير: هو المبشر بالخبر السار.

فارتدّ بصيراً: أي رجع إلى حالته الأولى من سلامة البصر.

يعقوب يتلقى خبر سلامة يوسف

ترك إخوة يوسف مصر في قافلة قاصدين أباهم في فلسطين وهم يحملون قميص يوسف لإلقائه على وجه أبيهم بناء على وصية يوسف لهم.

وهنا يصف القرآن المشاعر التي انتابت يعقوب قبل لقائه يوسف:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُم إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي ولمّا خرجت القافلة من مصر وجاوزت حدودها قال يعقوب لمن كان جالساً معه من أهله وأقاربه: إني لأشم رائحة يوسف التي تدل على أنه حيّ وتشير إلى قرب لقائي به **﴿لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾** لولا أن تنسبوني إلى الخرف وضعف العقل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ﴾ أي قال الحاضرون عنده من أهله

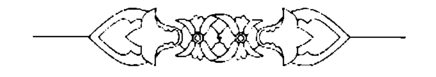
وأقاربه: والله إنك لا تزال تعيش في خطئك القديم من ذِكْر يوسف وتوقّع لقائه، قالوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن يوسف قد مات.

﴿فَلَمَّا أن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السار وهو ابنه يهوذا ألقى القميص على وجه أبيه امتثالاً لوصية يوسف، فعاد نظر يعقوب إلى حالته الأولى قبل أن يُصاب بالعمى.

ثم خاطب يعقوب من كان حوله من ولده وأهله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي الم أقل لكم إني أعلم من أمر يوسف وحياته ما لا تعلمون؟ وكان هذا العلم إلهاماً من الله وطمأنة منه أن يوسف لا يزال حيّاً.

ثم توجّه الإخوة إلى أبيهم قائلين بعد أن شعروا بفداحة جرمهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾أي ادعُ الله أن يغفر لنا ما فرط من ذنوبنا إننا كنا مذنبين في ما فعلنا مع يوسف.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُم رَبِّي﴾ أي سوف أسأل ربي أن يعفو عن ذنوبكم، لقد وعدهم يعقوب بالاستغفار لهم في المستقبل مشعراً إياهم بذلك بأن ذنبهم ليس من السهولة الصفح عنه سريعاً، وأن ما صدر عنهم يحتاج إلى توبة صادقة، وهل هذه التوبة ستحصل منهم مقرونة بالإخلاص أم لا؟ ثم أتبع يعقوب قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إن ربي غفور لذنوب عباده إذا تابوا عنها رحيم بجميع خلقه.



﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن
شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ
يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ
أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى
وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾
۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى الدُّنْيَا وَالْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا
وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

شرح المفردات

آوى إليه أبويه: ضمّهما إليه.

العرش: السرير الذي يجلس عليه يوسف للحكم بين الناس (سرير الملك).

خرّوا سُجّداً: انحنوا ليوسف تحية إعظام لا سجود عبادة.

البدو: أي البادية.

نزغ الشيطان: أفسد وأغرى.

إن ربي لطيف لما يشاء: إن ربي ينفّذ ما يريد برفق على أدق وجه.

وليّي: ناصري.

اللقاء المثير بين يعقوب ويوسف

أمر يعقوب أولاده بتحضير وسائل السفر للرحيل إلى مصر بناء على طلب يوسف الذي دعا أبويه وإخوته وأهلهم جميعاً ليستوطنوا فيها بعد أن وفّر لهم أسباب الحياة الرغيدة والعيش الكريم.

وكان يوسف قد كلّم الملك وعرّفه بمجيء أبيه وأهله فأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لاستقبال نبيّ الله يعقوب عليه السلام فانتقلوا إلى

خارج المدينة ونصبوا الخيام منتظرين وصول يعقوب عليه السلام.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ هنا يوجد حذف لدلالة المعنى عليه وتقديره: ولمّا وصل يعقوب وأهله إلى المكان المُعَدّ لاستقبالهم خارج المدينة واستُقبلوا استقبالاً كريماً، دخلوا على يوسف في خيمته الخاصة به فضم يوسف إليه أبويه، أي أمه وأباه[١]، ولم يذكر القرآن ما جرى في هذا اللقاء بل ترك للقارىء أو السامع أن يتصور ما جرى بينهم من سرور عارم ومن دموع الفرح ومن عناق وأشواق حارة وبالأخص بعد فراق دام أربعين سنة.

ثم قال يوسف لأبويه ولسائر أهله: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ﴾ أي ادخلوا مصر واستوطِنوا فيها آمنين على أنفسكم من كل ما يضرّكم، وذكر يوسف المشيئة الإلهية تبرُّؤاً من ميشئته وقوّته، وأن دخولهم مصر والعيش في كنفه وهو صاحب السلطة فيها إنما كان بمشيئة الله.

وبعد دخول يعقوب وأولاده إلى مصر وإنزالهم في المكان الذي أُعدّ لهم للسكن فيه استدعى يوسف أبويه وإخوته إلى ديوانه الذي يحكم فيه بين الناس ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ﴾ أي أجلس يوسف أبويه على سرير المُلك الذي يجلس عليه لتدبير أمور المملكة زيادة في إكرامهما حيث إن الملك خوّله السلطة والحكم بين الناس ﴿وَخرّوا لَهُ سُجّداً﴾ أي سجد أبواه وإخوته له سجود[٢] تحية وانحناء على عادتهم المألوفة في التحية، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم على أنه لون من ألوان التحية وهو تحية الملوك والعظماء في ذلك الزمان ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ عندئذ قال يوسف لأبيه: هذا السجود هو ما آلت إليه الرؤيا التي رأيتها في المنام في صغري وهي ﴿إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَر كوكباً والشمسَ والقمرَ

---

(١) وقيل أبوه وخالته لأن أمه قد ماتت فتزوج أبوه خالته والخالة بمنزلة الأم.

(٢) وقيل إن السجود كان من الإخوة فقط، كما أن من المفسرين من علّل السجود هنا بأنه لله سبحانه أي أنهم سجدوا لله شكراً لأجل وجدان يوسف وما صاروا عليه من النعمة بعد أن كانوا في شدة وفقر وجوع.

رَأَيْتُهُم لي سَاجدين﴾ وهذه الرؤيا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي قد حقق ربي هذه الرؤيا وأراني تأويلها بعد زمن طويل ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي وقد أحسن بي ربي إحساناً عظيماً إذ أخرجني من السجن معززاً مكرماً إلى مقام السيادة والحكم، ولم يذكر يوسف إحسان الله تعالى له بإخراجه من البئر سالماً لئلا يجرح شعور إخوته بذكر سوء ما فعلوا ﴿وَجَاءَ بِكُم مِنَ البَدْوِ﴾ أي وجاء بكم من البادية حيث كنتم تسكنون الخيم وتنتقلون من مكان إلى آخر طلباً لمرعى مواشيكم ثم انتقلتم الآن إلى الحضر لتعيشوا في رغد واستقرار ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْني وَبَيْنَ إِخْوَتي﴾ أي وقد أحسن ربي إليّ وأنعم عليّ بهذه النعم من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي. وقد جعل يوسف ما فعله إخوته به من تأثير الشيطان وليس من تأثير حسدهم ليخفف عن إخوته ما يشعرون به من الندم وتبكيت الضمير ﴿إِنَّ رَبي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ إن ربي رفيق بعباده يحقق مشيئته فيهم على وجه الصواب ﴿إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ إنه سبحانه عليم بأمور خلقه حكيم في تدبيره لشؤونهم.

ثم توجه يوسف إلى ربه بالدعاء شاكراً ما أسبغ الله عليه من النعم:

﴿رَبِّ قَدْ آتيتني مِن المُلْكِ وَعَلَّمْتَني مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَاديثِ﴾ أي يا إلهي يا من ربيتني بعنايتك وأعطيتني مقاليد السلطة والحكم، وعلمتني تفسير الكتب السماوية وتأويل المنامات ﴿فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ أي يا خالق السموات والأرض على غير مثال سابق ﴿أَنْتَ وَلِيّي في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أنت متولي أمري وناصري في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة ﴿تَوَفَّني مُسْلِماً وَأَلْحِقْني بِالصَّالِحِينَ﴾ أسألك يا رب أن تميتني مخلصاً وخاضعاً لك وألحقني يا رب يوم الحساب بعبادك الصالحين الذين حازوا رضاك.

وبهذا الدعاء يختتم الله قصة يوسف مبيّناً أن يوسف لم يشغله الجاه والسلطة عن طاعة ربه والإخلاص له وعن الاستعداد للآخرة بما يرضيه، وعن رجائه من الله أن يجمعه بالأخيار من عباده الصالحين.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ
وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن
مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ
غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾
قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

شرح المفردات

اجمعوا أمرهم: أحكموا تدبيرهم.

يمكرون: يتآمرون ويحتالون.

ذكر للعالمين: تذكرة للناس جميعاً.

وكأيّن من آية: وكم من علامة دالة على وجود الله ووحدانيته.

معرضونَ: منصرفون.

غاشية: كارثة كبرى تغمرهم.

الساعة: القيامة.

بغتة: فجأة دون توقع وانتظار.

سبيلي: طريقي.

بصيرة: على يقين ناشىء من وحي الله وحججه.

قصة يوسف من انباء الغيب

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الغاية المتوخاة من سرد قصة يوسف فيخاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي هذه القصة التي

أخبرناك بها عن طريق الوحي هي من الأمور الغيبية التي كانت خافية عليك وعلى قومك ليعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنك صادق في ما ترويه عن ربك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِم إذْ أجْمَعُوا أمْرَهُم وَهُمْ يَمْكُرونَ﴾ وما كنت يا محمد حاضراً مع إخوة يوسف حينما أجمعوا أمرهم واتفقوا على إلقاء يوسف في البئر، والادّعاء أن الذئب أكله، فروايتك للأحداث التي صادفها يوسف في حياته شاهدة على أنها وحي إلّهي.

﴿وَمَا أكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤمِنينَ﴾ ورغم كل هذه الأدلة والقرائن التي تشهد بأنك رسول الله حقاً وأن القرآن وحي إلّهي فإن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يقرّون بذلك ولو حرصت على أن يؤمنوا ويشهدوا بأن الإسلام هو دين الحق، لأن عقولهم لا تميز بين الحق والباطل.

﴿وَمَا تَسْألُهُم عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ﴾ وما تسألهم يا محمد أجراً نظير هدايتهم وإرشادهم إلى الإسلام وإنما أجرك على الله ﴿إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وما القرآن إلاّ تذكرة وعظة لأهل الأرض جميعاً.

فالإسلام دين عالمي وليس ديناً خاصاً بالعرب، جاء لينقذ الإنسانية من الفوضى والضلال، ويرسم لها طريق الخلاص من كل ما تتخبط فيه من العقائد الباطلة والشرائع الجائرة.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى السموات والأرض وما فيهما من دلائل تشهد بوحدانية الله:

﴿وَكَأيِّن مِنْ آيَةٍ في السَّمٰواتِ وَالأرْضِ﴾ أي وكم من علامة دالّة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته يرونها في السماء كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، ويرون ما في الأرض من جبال وسهول وبحار وأنواع النبات وكائنات حية ﴿يَمُرّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي يشاهدونها ويمرون عنها معرضين لا يفكرون ولا يعتبرون في ما تحمل من أدلة على وجود الله ووحدانيته وعظمة إبداعه لهذا الكون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وهُمْ مُشْرِكونَ﴾ وما يؤمن أكثر هؤلاء بالله تعالى وأنه هو الخالق إلا وكان إيمانهم يخالطه الشرك بالله، مثل ما كان عند العرب في الجاهلية حيث كانوا يقرون بوجود الله وأنه الخالق ولكنهم كانوا ينسبون له شركاء من أصنام يعبدونها لتقربهم إلى الله.

ومن الإشراك بالله إسباغ صفة الألوهية على أي إنسان في الوجود، ومن مظاهر الإشراك بالله الذين يتخذون رجال دينهم أرباباً من دون الله، ومن مظاهر الإشراك بالله التوجه إلى غير الله بالدعاء، كما أن من مظاهر الإشراك بالله اتخاذ بعضهم أهواءهم آلهة لهم؛ كل هذه المظاهر بالشرك بالله شائعة عند أكثر الناس كما صرّح بذلك القرآن.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي هل أمن واطمأن هؤلاء الذين يشركون بالله أن تأتيهم كارثة كبرى تصيبهم وتغمرهم: كالزلازل، والأعاصير، والفيضانات وغيرها جزاء كفرهم وإشراكهم بالله كما حصل لأسلافهم من قبل؟ ﴿أو تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرونَ﴾ أو تأتيهم القيامة فجأة بأهوالها وشدائدها دون أن يشعروا بقدومها وهم مقيمون على إشراكهم بالله وعصيانهم إياه فيعذبهم الله في نار جهنم جزاء ذلك.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ قل يا محمد لقومك هذه هي طريقي ومنهجي أن أدعو الناس إلى توحيد الله ودين الإسلام ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ على حجة واضحة ويقين ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أدعو إلى الله كذلك أنا ومن اتبعني من المؤمنين.

ويستفاد من ذلك أن على علماء المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الله بالحجة الواضحة خير قيام فهي أمانة استودعهم الله إياها في كل العصور فلا يليق بهم التهاون بها والتفريط بها ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ المشْرِكينَ﴾ وقل لهم يا محمد: أنزّه الله أن يكون له شريك في ملكه أو يكون له ولد، ولست من الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ
ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا
يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ
يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

شرح المفردات

القرى: جمع قرية وهي البلد الكبير أقل من المدينة أو هي كل مكان اتصلت به الأبنية.

عاقبة: مصير.

استيأس: استحكم اليأس فيهم.

بأسنا: عذابنا.

عبرة: عظة.

لأولي الألباب: لأصحاب العقول.

يُفترى: يُلفّق ويُختلق.

بين يديه: ما تقدّم عليه.

قصص الأنبياء فيها دروس وعبر

ثم تُختتم هذه السورة بالتهديد والوعيد للكافرين الذين يناوئون رسول الله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إلَيْهِم مِنْ أهْلِ القُرَى﴾ وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسل إلاّ كانوا رجالاً من البشر، ليسوا نساء ولا ملائكة، فأوحينا إليهم شرائعنا وأمرناهم بإبلاغها إلى قومهم، فكان كل قوم يعرفون هذا الرسول المرسل إليهم وما يتحلى به من الصدق والأمانة، وكان الرسل من أهل القرى دون أهل البادية لأن أهل المدن أعقل وأحلم وأعلم وأكثر تجربة من أهل

البادية الذين يغلب عليهم الجهل والجفاء والغلظة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم يسر في الأرض هؤلاء الذين يكذّبون دعوتك يا محمد فينظروا نظرة تأمل وتفكّر بما حل بالأمم السابقة من هلاك ودمار بسبب تكذيبهم رسل الله ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ولثواب الدار الآخرة وهو الجنة خير من لذّات الدنيا الفانية، وهو للمتقين الذين يقون أنفسهم الشرك بالله والمعاصي، وشتّان ما بين نعيم الدنيا الزائل ونعيم الآخرة الباقي ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم وتدركون أن العاقبة الحسنة للمتقين ربهم؟

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ حتى إذا يئس رسل الله من إيمان قومهم أن يصدقوهم ويستجيبوا لهم، وظن قومهم أن الرسل قد كُذبوا فيما وُعدوا به من النصر من عند الله، وبعد هذا الظنّ جاء النصر للرسل وبعث الله العذاب على الذين كذبوهم ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ فينجي الله رسله ومن يشاء من المؤمنين الذين اتبعوهم دون الكافرين الذين كذبوا رسله ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ المجْرِمِينَ﴾ ولا يَرُدُّ أحد عذاب الله وعقوبته وبطشه على القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وخالفوا رسله وما جاءوا به من الهدى من عند الله، فاعتبروا يا أيها المجرمون بسنن الله في من كان قبلكم واحذروا أن يحل بكم عذاب الله فإنّ الله سينصر رسوله محمداً والمؤمنين وإن طال الزمن.

هذه الآية وعد من الله بنصر رسوله محمد، وقد نزلت هذه الآية في مكة حيث كان المؤمنون قليلين مستضعفين، فما مرت سنوات قليلة حتى نصر الله رسوله والمؤمنين على جحافل الكفر، أيّ برهان أقوى من ذلك يشهد بصدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلهي؟

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبابِ﴾ لقد كان في قصة يوسف وقصص الأنبياء السابقين عبرة لأصحاب العقول السليمة يعتبرون بها، وموعظة يتعظون بها ويعلمون بأن العاقبة الحسنة للمتقين، وأن الهلاك والدمار للمجرمين

وهي نهاية كل من يبغي في الأرض ويفسد فيها ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾ أي ما كان هذا القرآن كلاماً مختلَقاً مكذوباً على الله ولكنه وحيٌ من الله أنزله على رسوله محمد ﷺ.

فما يحتويه القرآن من قصص الأنبياء السابقين الموافقة لما جاء في التوراة مع تصحيح ما جاء فيها من تغيير وتبديل.

وما اشتمل عليه القرآن من تشريعات تسمو على كثير من التشريعات الوضعية في العصر الحاضر.

وما ترى في القرآن من فصاحة وبلاغة حتى عجز كل البلغاء عن مجاراته.

وما فيه من أخلاق ومبادىء سامية ترفع الإنسان إلى أعلى مراتب السمو الإنساني. كل ذلك لا يتصور عقل أن يأتي به إنسان أمي من عند نفسه إلاّ أن يكون وحياً من الله.

أضف إلى ذلك أن محمداً قبل إعلانه النبوة ونزول الوحي الإلهي عليه كان معروفاً في قومه بالصدق والأمانة، فليس من المعقول أن يصدق مع الناس ويكذب على الله ويأتي بكل هذا الذخر العظيم من الهدى للناس جميعاً إلاّ أن يكون رسول الله حقاً.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن الله أنزل القرآن مصدّقاً للكتب السماوية التي بين يدي محمد ﷺ، أي التي سبقته. فمحمد لم يبتدع ديناً جديداً ولكنه جاء بالوحي الإلهي الذي أُنزل عليه مكمّلاً للرسالات الإلهية السابقة ومصححاً لما طرأ عليها من بدع وتحريفات بسبب طول الزمن عليها، والروايات المتناقضة والترجمات المختلفة والاضطهادات المتتابعة، فجاء الإسلام بالحقائق في ما اختلف الناس فيه ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ كما أن الله أنزل القرآن وفيه تفصيل كل شيء يحتاج إليه الإنسان في شؤون الدين والدنيا والآخرة وهدى من الضلالة ورحمة للناس حيث شرع لهم التشريعات التي فيها اليسر والمصلحة لهم وهذا ما ذكره الله في رسالة محمد بقوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

دروس وعبر من قصة يوسف

قصة يوسف تحمل في طياتها كثيراً من الدروس والعبر نذكر بعضاً منها:

درس في العفة

إن في قصة يوسف وصموده أمام الإغراء الجنسي ومغالبته الشهوة ما يجعلها أعظم درس يمكن أن يكون نبراساً وقدوة للشباب.

فشهوة الجنس هي تلك الرغبة العارمة التي خضع أمامها عظماء التاريخ وأكثر الناس، ولكن الانتصار عليها هو مفتاح العظمة كما حصل ليوسف وبالأخص إذا لابستها تلك الإغراءات والظروف التي عايشها.

فها هي امرأة العزيز ـ وزير الملك ـ تختلي بيوسف وهي على قسط وافر من الجمال تعرض عليه مفاتنها وإغراءها وتقول له (هيت لك) أي أقْبِل عليَّ. إن الوضع الذي كان عليه يوسف يستدعي الاستجابة لها برغبة وشوق، وذلك لأن يوسف في ريعان الشباب حيث تنفتح النفس على الحب وتضطرم فيها الشهوة، بالإضافة إلى ذلك فهو في قصرها وتحت سلطانها وقهرها بحيث إذا امتنع عنها ورفض رغبتها تعرّض لأذاها وانتقامها. كما أن يوسف في حال الإقدام على ما طلبت لا يخشى أن تشتكي عليه لأنها هي الطالبة الراغبة وقد غلّقت الأبواب وأبعدت الرقباء. ولكن أمام هذا كله أعرض عنها يوسف بدافع الخشية من الله وبدافع الإخلاص والوفاء لزوجها، لذا قال لها بعد أن طلبت مضاجعته: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّه رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

اختلاط الجنسين وأخطاره

من الأسباب التي أدّت إلى غواية امرأة العزيز ليوسف اختلاطها معه ووجوده المستمر في القصر بجانبها مما أدى إلى إضرام شعلة الحب في قلبها، بالإضافة إلى ما يتمتع به يوسف من جمال باهر.

فالخلوة بين الرجل والمرأة بعيداً عن رقابة الأهل وعن أعين الناس تؤدي إلى أخطار جسام لا تحمد عقباها، وما تشكو منه المدنية الحاضرة من كثرة الزنا واللقطاء والأمراض الجنسية ما هو إلا بسبب تهاون الناس في هذا الاختلاط بين الجنسين، لذا نرى أن الإسلام حذّر من خلوة الرجل بالمرأة بدون وجود محرم للمرأة كالأب أو الخال أو العم أو الأخ، ويقول النبي محذراً من هذا الاختلاط «لا يخلونّ رجل بامرأة إلاّ كان ثالثهما الشيطان»[١].

التضحية في سبيل المبدأ

وها هو يوسف تطلب منه صاحبات امرأة العزيز أن يستجيب لرغبات سيدته الجنسية بمعاشرتها وألاّ يرفض لها طلباً، ويحذّرنه بأن مصيره السجن في حال رفضه ذلك، ولكن يوسف رفض طلبهن وتوجّه إلى الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لقد فضّل يوسف حياة السجن وما فيه من شظف العيش على حياة القصور وما فيها من رغد العيش على أن يستسلم لرغبات سيدته الآثمة، أيّ تضحية هذه يوازيها سموّاً ونبلاً؟

عاقبة الصبر

تبتدىء مراحل صبر يوسف بإلقائه في البئر والبعد عن أهله ثم إنقاذه وبيعه رقيقاً في مصر، ثم تأتي مرحلة قاسية من حياته وهي زجّه في السجن سبع سنين ظلماً وعدواناً. هذه الأمور يمكن أن تلقي اليأس في النفوس والكفر بقيم الحق والعدالة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل بل ظل يوسف صامداً على مبادئه صابراً على بلوائه مؤمناً بالله وعدله داعياً أصحابه في السجن إلى عبادة الله وحده وعدم

---

(١) رواه الترمذي.

الإشراك به إلى أن أنعم الله عليه بالإفراج عنه ورفع التهمة عنه وتقلده أرفع المناصب الدنيوية، وقد بيّن يوسف لإخوته عاقبة الصبر بقوله: ﴿إِنَّه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِين﴾ فالله سبحانه يمتحن من يريد اصطفاءه بالرسالة بأنواع البلاء ليظهر جوهر صدقه وليخلّصه من أمراض النفوس وليثيبه بعد ذلك بأنواع الكرامة والفضل.

الشكوى إلى الله وحده

فهذا يعقوب عليه السلام عندما تلقى الخبر من أبنائه بأن الذئب أكل يوسف وهو أحب أبنائه إليه لم يخرجه الحزن عن طوره بل قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي صبر لا جزع فيه ولا شكوى إلى الخلق بل إلى الله وحده، وهنا درس للإنسان بأن يتلقى المصائب بروية وحكمة مهما فدح الخطب وعظم المصاب.

ونرى يعقوب أيضاً عندما تلقى خبر استرقاق ابنه بنيامين في مصر بعد فقدانه يوسف لم يزد قوله عن هذه الجملة ﴿إنَّما أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلى اللَّه﴾ وهنا درس للإنسان بأنه إذا ضاقت به السبل واجتمعت عليه المصائب أن يلجأ إلى الله وحده وألا يعوّل على شيء سواه، فكل من انقطع إلى الله كفاه ومن طرق بابه فتح له أبواب رحمته.

الحرص على السمعة الطيبة

وفي قصة يوسف درس في الحرص على السمعة الطيبة، فيوسف ذلك المضطهد الملقى به في ظلمات السجن ظلماً مدة طويلة بدون ذنب اقترفه، لمّا جاءه أمر الإفراج عنه ودعوته لمقابلة الملك لم يتلهف لهذه البشرى بل طلب ممن بلّغه إياها أن يطلب من الملك أن يحقق في قضيته قبل الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة التي ألصقت به زوراً وبهتاناً.

فلمّا أجرى الملك التحقيق مع النسوة واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة بأنها

هي التي راودته عن نفسه وأن يوسف بريء مما اتُّهم به، رضي يوسف بالخروج من السجن مرفوع الرأس موفور الكرامة، عندئذ قال الملك لمّا ظهرت براءة يوسف ومبلغ نبله وصدقه ﴿ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

العفو عند المقدرة

وفي قصة يوسف درس في التسامح والعفو عند المقدرة، فيوسف عندما دخل عليه إخوته في ديوانه في مصر وتعرّف عليهم كان باستطاعته أن ينتحل أيّ عذر للزج بهم في السجن وتعذيبهم أشد العذاب جزاء ما أساءوا إليه. لقد كانت السلطة بيده وكانت حياتهم رهن إشارته ولكن قابل إساءتهم بالإحسان، فزاد كيلهم، وردّ البضاعة التي اشتروا بها الحنطة إليهم دون أن يشعروا، فعل ذلك وهم لا يعرفونه. وعندما كشف لهم يوسف عن هويته شعروا بفداحة الجرم الذي اقترفوه في حقه واعترفوا بذنبهم، عندئذ قال لهم يوسف هذه الجملة التي يتمثل فيها كل أنواع النبل ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

العدل بين الأبناء

وفي قصة يوسف درس في كيفية معاملة الأبناء بالعدل والمساواة وعدم الانحياز إلى أحد منهم فهذا يوسف كان قريباً من قلب والده يعقوب لأنه توسّم فيه أمارات النبوة مما أثار حقد إخوته عليه فقالوا: ﴿ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أرضاً يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أبيكم وتكونوا مِنْ بعْدِهِ قَوماً صالحين﴾.

فليأخذ الآباء درساً من قصة يوسف وليعاملوا أبناءهم بالعدل والمساواة وعدم إظهار أي ميل لواحد منهم دون الآخر، وإذا حصل ذلك الميل عن استحقاق وجدارة فليكتموه في قلوبهم ولا يُظهروه حتى لا تحصل نزاعات بين الإخوة مصدرها الغيرة والحسد، وتؤدي إلى قطع روابط المحبة بينهم.

تعريف بسورة الرعد

هذه السورة مدنية أي نزلت بالمدينة المنورة، وقيل إنها مكية أي نزلت بمكة. وسمّيت بسورة الرعد لما اشتملت عليه من تسبيح الرعد بحمد الله تعالى.

افتتحت هذه السورة بالثناء على القرآن الكريم وأنه الحق من الله أنزله على رسوله محمد ﷺ، ثم ذكرت بعض المظاهر الكونية التي خلقها الله في الأرض وفي السماء الشاهدة على قدرة الله ووحدانيته وعظيم حكمته.

وتتحدث السورة عن المشركين وتعنّتهم وطلبهم أن يصيبهم العذاب على سبيل السخرية كأنهم لم ينظروا إلى ما حلّ بالكفار قبلهم من ألوان العذاب، وطلبهم معجزة من الله شاهدة على صدق نبوّة محمد كأنهم لا يكفيهم هذا القرآن الذي يتلى عليهم والذي هو معجزة تفوق معجزات الأنبياء السابقين.

كما تتحدث السورة عن إحاطة علم الله بكل صغيرة وكبيرة في هذه الأرض، وأنه سبحانه يعلم ما يغيب عن الأنظار وما يُشاهد منها، ويعلم سبحانه من يُسرّ القول ومن يجهر به، ومن هو مختفٍ بالليل وظاهر في النهار، وأنه سبحانه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

وهذه السورة تذكّر بآيات الله الكونية وأنها جميعها خاضعة مستسلمة لله سبحانه، كما تحاور المشركين عبدة الأصنام في معبوداتهم التي لا تنفعهم بشيء، وتعطي صورة عن انتصار الحق على الباطل، كما تذكر فضائل ذكر الله الذي به تطمئن القلوب.

وتذكر السورة صفات المؤمنين الحسنة وما أعد الله لهم في الآخرة من نعيم مقيم، كما تذكر صفات الكافرين السيئة وما أعد الله لهم من عذاب أليم.

ثم تختم هذه السورة ببيان حسن عاقبة المتقين وسوء عاقبة المكذبين لرسل الله، مع مواساة النبي ﷺ على ما أصابه من الكفار من أذى واضطهاد.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ
عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ
يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

شرح المفردات

الكتاب: المراد به هنا القرآن.

عمد: جمع عمود، والعمود ما يقام عليه البيت أو غيره.

استوى على العرش: استولى واستأثر بالسلطان ونفذت إرادته في ملكوته.

لأجل مسمى: لوقت محدد يعلمه الله.

يدبّر الأمر: يصرّفه على ما يريد بقدرته وحكمته.

يفصّل الآيات: يبيّن دلائل قدرته مفصلة.

توقنون: تصدقون تصديقاً جازماً لا ريب فيه.

من الدلائل على وجود الله ووحدانيته

يستهلّ الله هذه السورة ببيان حقيقة القرآن ومنزلته:

﴿الٓمٓرٰ[١] تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات القرآن البالغ حد الكمال، الغنيّ عن الوصف، وسميت كلمات القرآن بالآيات لأنها علامات دالة على أن القرآن وحي إلٰهي وعلى صدق نبوّة محمد ﷺ، فإن كل آية من القرآن معجزة ببلاغتها ومعانيها ﴿والّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزله الله عليك يا محمد هو الحق الثابت الذي لا يعتريه الباطل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ نعم إن أكثر الناس لا يصدّقون بأن القرآن مُنزَلٌ من عند الله، وهذه حقيقة أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرناً وجاءت الأيام والسنون تؤيدها والسبب هو اتباع الناس عقائدهم الموروثة وجهلهم بحقائق القرآن، فلو تدارسوه بعقل منفتح لأقرّوا بأنه كلام الله حقًّا، واتبعوا ما فيه من الحق والهدى.

﴿اللَّهُ الذي رَفَع السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الله الذي رفع السماوات وما تحتويه من مليارات النجوم والكواكب وجعلها قائمة بغير دعائم مرئية. فالله سبحانه يمسكها بقدرته ويسيّرها في مداراتها فلا يرتطم بعضها ببعض، ولا يسقط بعضها على الأرض فيدمرها، وهذه الأعمدة ـ والله أعلم ـ هي نظام الجاذبية الذي وضعه الله في الكون ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الاستواء في اللغة يأتي بمعنى الاستقرار وبمعنى الاستيلاء والقهر. والعرش يكنى به عن العز والسلطان، وعرش الله مما لا يعلمه البشر إلاّ بالاسم. والمعنى: ثم استوى على العرش استواء يليق به بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل ﴿وَسخَّرَ الشَّمْسَ وَالقمرَ كُلٌّ يجْري لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي وذلّل الله الشمس والقمر وجعلهما في حدود ما أراده منهما لمنافع الخلق، فكلٌّ منهما يسير في مداره الذي رسمه الله له، فالشمس تقطع مدارها حول الأرض في سنة شمسية،

(١) المر: هذه الأحرف وغيرها من الحروف التي ابتدأت بها بعض سور القرآن، قيل في تفسيرها أقوال شتى منها: إن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه هو مصوغ من مثل هذه الحروف وغيرها التي بها يتكلم العرب ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن عندما تحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة منه، فعجزهم هذا برهان واضح على أن القرآن منزل من عند الله وليس من تأليف بشر فلو كان القرآن من عند غير الله لما عجزوا عن الإتيان بمثله.
وقيل: إن هذه الأحرف تثير الانتباه والاستماع لما يليها مما يحتويه القرآن من الهدى، وقيل: هي أسماء للسور، وقيل: هي أسماء للقرآن، وقيل: هي سر الله في القرآن وهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، وقيل هي أسماء من أسماء الرب.

والقمر في شهر قمري. والأجل المسمى هو يوم القيامة، أي أن الشمس والقمر يستمرّان في حركتهما ومدارهما بالتتابع المعهود إلى يوم القيامة ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي يقضي ويدبّر أمر ملكوته في السماء والأرض ويتصرف فيه حسب إرادته ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يبيّن الله البراهين الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وبالغ حكمته في القرآن وفي الكتب المنزلة على رسله ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُم تُوقِنُونَ﴾ لكي تتفكروا وتتحققوا كمال قدرته وتؤمنوا إيماناً راسخاً بلقاء ربكم يوم القيامة، فالله القادر على رفع السماوات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الخلق، قادر كذلك على إحياء الإنسان بعد موته يوم القيامة ليحاسبه على ما فعل من خير أو شر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

شرح المفردات

مد الأرض: بسطها.

الرواسي: هي الجبال الثوابت.

يغشى: يغطي.

قطع متجاورات: قطع من الأرض متلاصقات.

وجنات من أعناب: وبساتين من كروم العنب.

ونخيل صنوان: نخلتان أو أكثر تتشعب من أصل واحد، وصنوان مفردها صنو وصنوان تطلق على المثنى والجمع.

لآيات: لعلامات وأدلة على وجود الله ووحدانيته.

من مظاهر القدرة الإلٰهية في الأرض

ويتابع القرآن ذكر بعض مظاهر قدرة الله في الأرض ونعمه على خلقه:

﴿وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأرضَ﴾ أي وهو الله سبحانه الذي بسط الأرض ليسهل على الناس الانتفاع بها والانتقال عليها من مكان إلى آخر ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأنهاراً﴾ والرواسي هي الجبال التي جعلها الله في الأرض لتثبيتها وحفظ توازنها، ومن فوائد الجبال أنها المصدر لعيون الماء والأنهار حيث تتراكم الثلوج على قممها لأنها أبرد جواً من السهول ثم تذوب عليها تدريجيًّا وتختزن المياه في جوفها، ثم تسيل منها عيون الماء التي تغذي الأنهار، ومن عيون الماء والأنهار ترتوي الأشجار المثمرة وكافة النباتات ولذا عقّب القرآن على الأنهار قوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيهَا زَوجَينِ اثنَينِ﴾ والمراد بالزوجين عنصرا التذكير والتأنيث وبدونهما لا ينعقد الثمر.

فالثمرات تحصل من تلقيح الأزهار، والأزهار منها ما يحتوي على الخلية الذكر ومنها ما يحتوي على الخلية الأنثى ويحصل التلاقح بينهما بواسطة الطلع أو الغبار اللقاحي الموجود في الزهر، إما بواسطة الرياح أو بواسطة الماء أو بواسطة الحشرات. والقرآن يشير إلى أن الرياح هي من العوامل في تلقيح الأشجار أو السحاب بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر].

والجدير بالذكر أن القرآن عمم وجود التأنيث والتذكير في كافة الثمرات وهذه حقيقة علمية معترف بها، كما أكدها في موضع آخر من القرآن حيث قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء].

فبعض أنواع النبات تكون زهرته مفردة بحيث يجتمع فيها عنصرا التذكير

والتأنيث، وبعض النبات يكون فيه التذكير في زهرة، والتأنيث في زهرة أخرى في الشجرة عينها، والبعض الآخر يكون التذكير فيه في شجرة والتأنيث في شجرة أخرى كما هو الحال في النخيل. وهنا يتجلى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم حيث عمَّم وجود التلاقح بين كل أصناف الشجر والنبات حيث قال: ﴿**وَمِنْ كُلِّ الثَّمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنينِ**﴾ بينما كان العرب في زمن نزول القرآن لا يدركون ذلك إلا في شجر النخيل. فمن أين لأمّيّ ـ وهو محمد ﷺ ـ أن يعلن هذه الحقيقة على الملأ وهو لم يدخل جامعات، ولم تكن في عهده جامعات ولم يتخصص في دراسة النبات؟ هل هناك تعليل لذلك إلاّ أن القرآن وحي من عند الله؟ ﴿**يُغْشِي اللّيلَ النَّهارَ**﴾ أي جعل الله الليل يغطي ضوء النهار ويكسوه بظلامه ليستريح الناس في الليل من متاعبهم. والملفت للنظر أن الله ذكر الليل والنهار عقب ذكره ﴿**مِنْ كُلِّ الثمرات**﴾ لأن تعاقب الليل والنهار على الثمار يساعد على إنضاجها وكمال صلاحها.

هذه المظاهر الكونية يمر الناس عليها وهم غافلون لا يدركون ما فيها من أسرار لذا أتبع القرآن ما سبق بقوله: ﴿**إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكَّرون**﴾ أي إن هذه المظاهر الكونية لعلامات وبراهين تدل على وجود الله ووحدانيته وبالغ قدرته وحكمته يدركها الذين يتفكرون في أسرارها ومنافعها.

﴿**وفي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ**﴾ ويوجد في الأرض قطع يجاور بعضها بعضاً متماثلة في تربتها وفي تعرضها لأشعة الشمس ﴿**وَجَنَّاتٌ مِنْ أعْنَابٍ وَزَرْعٌ**﴾ وفيها بساتين تشتمل على كروم العنب، كما أن فيها ما يزرعه الإنسان من أنواع الحبوب والبقول ﴿**وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ**﴾ صنوان: جمع صِنْوٍ وهما النخلتان أو النخلات اللاتي يجمعهن أصل واحد ﴿**يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ في الأُكُلِ**﴾ وهذه البقع من الأرض التي يجاور بعضها بعضاً تُسقى بماء واحد ولكن ما يُزرع من زرع وشجر يفضل بعضه بعضاً في الطعم فالبعض حلو والبعض حامض والبعض الآخر يختلف في الشكل والرائحة عن الآخر ﴿**إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ**

يَعْقِلُونَ﴾ أي إن هذا التفاوت في الثمر مع تماثل التربة التي يخرج منها والماء الواحد الذي يُسقى منه لدليل واضح على وجود الله ووحدانيته يدركه أصحاب العقول السليمة، فيعلمون أن وراء هذا التفاوت في الثمر قدرة الله التي أحسنت كل شيء خلقه، فيؤمنوا به سبحانه ويخصّونه وحده بالعبادة، ومن لم يقرّ بذلك فليس جديراً بأن يكون من زمرة العقلاء.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ
خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

شرح المفردات

خلق جديد: عودة للحياة بعد الموت (أي البعث).

الأغلال: جمع غل، والغل طوق أو قيد من حديد أو جلد يجعل في عنق المجرم أو في يديه ورجليه.

بالسيئة: المراد بها هنا العذاب والعقوبة.

الحسنة: السلامة والعافية والثواب في الآخرة.

المثلات: جمع مَثُلَة وهي نقمة أو عقوبة تنزل بالإنسان فيُجعل مثالاً يرتدع به غيره.

مغفرة للناس: ساتر لذنوبهم متجاوز عن خطاياهم إذا تابوا وأصلحوا نفوسهم.

لولا أنزل عليه: هَلاّ أنزل عليه.

آية من ربه: معجزة من ربه.

منذر: مخوّف من عاقبة الكفر.

إنكار المشركين للبعث وطلبهم معجزة من رسول الله

بعد أن ذكر القرآن الآيات الدالة على عظيم قدرة الله أعقب ذلك بالرد على المشركين الذين ينكرون إعادة الإنسان حياً بعد الممات يوم الجزاء:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُم أَئِذَا كُنَّا تُراباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَديدٍ﴾ أي إن يقع منك عجب يا محمد من تكذيب هؤلاء المشركين لك بعد ما كنت معروفاً عندهم بالصادق الأمين، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث مع ما يشاهدونه من الآيات الدالة على عظيم قدرة الله في الكون، واستبعادهم عودة الأجسام الميتة إلى الحياة يوم القيامة حيث قالوا: أنبعث أحياء بعد الموت بعد أن نصير تراباً، ونكون في خلق جديد؟ **﴿أولئِكَ الَّذين كَفَرُوا بربِّهم﴾** أي هؤلاء المكذبون بحصول البعث هم الذين جحدوا قدرة الله وكفروا به، فلو آمنوا بأنه سبحانه خالق السماوات والأرض لعلموا أنَّهُ قادر على بعث الأجسام حية بعد مماتها، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾** [الأحقاف].

ثم وصف الله مصير هؤلاء المنكرين للبعث بقوله: **﴿وَأُولَئِكَ الأغْلالُ في أعْنَاقِهِم﴾** هذا هو وصف لحالهم في الآخرة حيث يسحبون إلى النار بسلاسل مربوطة بالأغلال التي في أعناقهم، كقوله تعالى في سورة غافر: **﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾**.

وقد يكون المعنى على سبيل المجاز بأن هؤلاء مقيدون بقيود الضلالة فلا يرجى منهم خير، وهو تشبيه وتمثيل لحالهم في امتناعهم عن الإيمان وعدم التفاتهم إلى الحق بحال مَن جُعِل في أعناقهم أغلال بحيث لا يمكنهم الالتفات معها.

والمعنيان لا تعارض بينهما فلا مانع من إفادة الآية لكليهما، فالكفار محجوبون عن النظر والتفكر والاهتداء إلى الصواب في الدنيا، وفي الآخرة تكون

الأغلال في أعناقهم زيادة في تعذيبهم وإهانتهم ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهؤلاء هم أصحاب النار يُعذَّبون فيها ولا يبرحونها أبداً.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ والمراد بالسيئة هنا العذاب أو العقوبة التي أنذرهم بها رسول الله ﷺ إذا ظلوا على كفرهم، والمراد بالحسنة ما كان يبشرهم به من الثواب والحياة الطيبة جزاء إيمانهم بربهم وطاعتهم له.

ولكن المشركين قابلوا إنذار النبي ﷺ لهم بالاستهزاء والإنكار واستعجلوا وقوع العذاب بهم كما جاء في سورة الأنفال:

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ولكن ما يطلبه المشركون ليس فيه شيء من التعقل والصواب فالعاقل من يطلب الخير لنفسه ولا يستعجل الشر، ولو أن الأمر الذي طلبوه لم يكن له سوابق لكان لهم بعض العذر، ولهذا عقب الله على طلبهم استعجال العذاب بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾ أي وقد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة التي استأصلتهم كقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط، وقد رأوا آثار الهلاك الذي حلّ بهم جزاء كفرهم، ولهذا ليس لهم عذر في تعريض أنفسهم للهلاك بل الأجدر بهم الاعتبار بتلك الأمم السابقة ﴿وإِنَّ رَبَّك لَذُو مَغْفِرَةٍ للنَّاس عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي وإن ربك يا محمد لصاحب عفو وصفح وستر على المذنبين الذين تابوا فلا يفضحهم في موقف القيامة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ﴾ كما أن ربك شديد العقاب لمن أصر على كفره وعصيانه لربه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِين كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عليه آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ويقول الذين كفروا: هلاّ أُنزل على محمد معجزة من ربه تكون حجة وعلامة على نبوته مثل معجزات الأنبياء السابقين؟ وفاتهم أن الله أيّد رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الذي هو معجزة في حدّ ذاته

تفوق معجزات الأنبياء السابقين، فهو معجزة في بلاغته وفصاحته وهديه وتشريعه العادل، وما أتى به من أنباء الغيب، وقد تحدّى الله به الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله فلم يستطع أحد أن يأتي ولو بسورة من مثله، ولو أنهم أمعنوا تفكيرهم في القرآن الذي هو بين أيديهم لعلموا علم اليقين بأن القرآن كلام الله حقًّا وأن محمداً رسول الله.

إن معجزة القرآن باقية وخالدة على مر الزمن يدركها ويلمسها كل من تأمل فيها بخلاف معجزات الأنبياء السابقين التي لا يدركها إلاّ الذين عاصروا أنبياءهم ثم كانت بعدهم عرضة لإنكار المنكرين. وقد أثبت القرآن حصول هذه المعجزات وبيّنها بالتفصيل وكفى بالقرآن حجة ودليلاً على حصولها.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ إنما أنت مخوّف ومحذّر لقومك من عاقبة الكفر ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ولكل قوم في كل زمان رسول من الله يهديهم إلى الحق مؤيَّد بمعجزة من جنس ما هو سائد في عصرهم تكون حجة ودليلاً على رسالته ونبوّته، فلمّا كان الغالب في زمن عيسى عليه السلام مهنة الطب جعل الله معجزته ما يحير الأطباء وهي إحياء الموتى بإذن الله وإبراء الأكمه والأبرص، ولمّا كان الغالب في زمن موسى السحر جعل الله معجزته أمراً خارقاً هو أقرب إلى طريقتهم في الإقناع فأمر الله رسوله موسى بإلقاء عصاه فأصبحت حيَّة ابتلعت كل أدوات السحرة، ولمّا كان الغالب في زمن محمد ﷺ الفصاحة والبلاغة في الكلام جعل الله معجزته القرآن الكريم الذي أعجز أرباب الفصاحة والبلاغة في عصرهم وفي كل عصر.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ
وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ
ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ
مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ
خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا
بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾﴾

شرح المفردات

تغيض: تنقص.

عالم الغيب والشهادة: عالم بما غاب عن الخلق وبما شاهدوه.

المتعال: المستعلي على كل شيء بقدرته.

مُسْتَخْفٍ: مبالغ في الاختفاء.

سارب: بارز يراه كل أحد.

معقّبات: ملائكة يتعاقبون على حفظ الإنسان بالليل والنهار.

من أمر الله: أي بأمر الله.

سوءاً: هلاكاً وعذاباً.

وال: ناصر يمنع عنهم العذاب.

عِلْمُ اللّه المحيط بالكون

ويتابع القرآن فيذكر شمول علم الله لما يجري في هذا الكون:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى﴾ فالله يعلم ما تحمل كل أنثى في بطنها عند حملها أهو ذكر أم أنثى، أم أن الجنين واحد أم أكثر، ويعلم من دقائق تكوينه وما يحيط به ما لا يعلمه أحد غيره **﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾** الغيض هو

النقصان أي يعلم سبحانه ما تلد الأنثى قبل اكتمال جنينها، ويعلم السقط الذي ينزل من الرحم بعد أشهر من الحمل، أو ما تراه المرأة من دم في حملها، كما يعلم الله سبحانه ازدياد حجم الأرحام بما تشتمل عليه من ولد أو أكثر ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ كما أن الله خص كل مخلوق وكل شيء في هذا الكون بوقت معيّن للظهور وحدّد له قسطاً معيّناً في الرزق والأجل، كما جعل الله كل شيء بمقدار معيّن يترتّب عليه دوام الحياة على الأرض، فمثلاً أن نسبة الأوكسجين تحدد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تشعل الغابة.

ثم إن إشعاعات الشمس هي بمقدار فلو أعطت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية على كوكبنا الأرضي، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحت رماداً وهكذا فإن هناك أمثلة كثيرة لا تحصى تبين الحكمة الإلّهية في جعل كل شيء بمقدار معين.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ الكبيرُ الْمُتَعَالِ﴾ أي أن الله سبحانه يعلم ما يغيب عن أبصار الناس فلا يرونه، كما يعلم ما يشاهدونه بأبصارهم فلا يخفى عليه شيء وهو الكبير بقدرته ودونه كل شيء، كما أنه المستعلي على كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله.

ثم يبين الله مدى علمه بأحوال الناس فيقول: ﴿سَواءٌ مِنْكُم مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أي من أسرَّ القول وأخفاه وكتمه ولم يتلفظ به، أو أعلنه وأظهره، فهما سواء عند الله يعلمهما ولا يخفى عليه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ باللَّيْلِ﴾ كما يعلم سبحانه المستتر المتواري في ظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ويعلم الظاهر المتصرف في حوائجه بالنهار.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي للإنسان ملائكة يحيطون به من

جميع الجهات من قدّامه ومن وراء ظهره. وسمّى الملائكة معقبات لأنها تتعاقب ويجيء بعضها عقب بعض كما ورد في الحديث الشريف: «يتعاقبون فيكم: ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»[١] ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي يحفظون الإنسان بأمر الله وإذنه وهم كالحرس له فإذا جاء قَدَرُ الله وقضاؤه بحلول السوء خلَّوا بينه وبين قَدَرِ الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ هذه الآية من جوامع الكلم التي تختصر بكلمات قليلة أسباب رقيّ الأمم وانحطاطها، فإن تغيير الله لحال الأمم تابع لتغيير ما بأنفسهم من شر إلى خير. هذه القاعدة مطردة في حياة الأمم، لا فرق بين قوم وقوم، ولا بين أمة وأمة أخرى.

لا تجد أمة حرصت على اتقان صناعتها واجتهدت في ترقية زراعتها، وهذبت من أخلاقها، وساد العدل في أرجائها إلا وقد حازت على الخير العميم، وصعدت قُدُماً في سلّم الرقيّ. وبالمقابل لا تجد أمة أخلدت إلى الكسل وأهملت استثمار مواردها الطبيعية، وانقادت إلى الشهوات، وغلب عليها الظلم، وشاع فيها الغش والكذب إلاّ وسادها الفوضى والانحطاط، وأصابها الفقر والعوز والصراعات الدامية، فإن لكل عمل ثمرة تجنى منه، فالذين ساروا على منهج الحق والخير استحقوا من الله النعمة والرخاء والسعادة، والذين ساروا في دروب الشر حل بهم البلاء، هذه سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾وإذا أراد الله بقوم هلاكاً أو عذاباً أو بلاء بسبب ما اقترفوا من ذنوب فلا يقدر أحد على ردّ ذلك عنهم ﴿وَمَا لَهُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ وليس لهم من غير الله ملجأ أو ناصر يمنع عنهم عذابه.

---

(١) رواه البخاري.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ
ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ
ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ
ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ
ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴿١٥﴾﴾

شرح المفردات

السحاب الثقال: السحب المثقلة بالمطر.

يجادلون: يناقشون ويخاصمون.

شديد المحال: شديد القوة والعقوبة لأعدائه.

ليبلغ فاه: ليصل إلى فمه.

وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال: وليست عبادة الكافرين للأصنام إلاّ ضياعاً وخساراً.

يسجد: يخضع وينقاد.

طوعاً: اختياراً.

كرهاً: جبراً وإلزاماً.

الغدوّ: جمع غداة وهي أول النهار.

الأصال: جمع أصيل وهو آخر النهار.

خضوع الكون لله

ثم ينتقل القرآن إلى وصف بعض مظاهر القدرة الإلهية في الطبيعة بصورة تهز المشاعر الإنسانية وتضفي عليها الرهبة والخشوع لرب العالمين:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[١] أي أن الله هو الذي يريكم البرق فترهبون من منظره لما يتبعه عادة من الصواعق التي تقتل الإنسان أحياناً، وتطمعون في الخير من جرّاء حدوثه لما يعقبه من مطر يُنبت الزرع ويسبّب الخصب للأرض ﴿وَيُنْشِيءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ويحدث الله السحب المثقلة الممتلئة بالمطر التي يعمّ نفعها، والسحب الثقال جمع ثقيلة لكثرة ما تحمله من ماء.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ ويعظّم الرعد الله سبحانه ويمجّده، وقد رُوي عن رسول الله محمد ﷺ أنه كان إذا سمع صوت الرعد الشديد قال: «اللّهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»[٢] وكان يقول أحياناً إذا سمع صوت الرعد: «سبحان من يسبّح الرعد بحمده»[٣].

وتسبيح الرعد يكون بلسان المقال ولكن الناس لا يفهمون كيف يسبّح الرعد كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] وقيل يسبّح بلسان الحال أي أنه يدعو إلى تسبيح الله، والمعنيان جائزان ﴿والمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ وتسبح الملائكة من خيفة الله ورهبته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي وينزل الله الصواعق فيصيب بها من يشاء إهلاكه من عباده.

روي في أسباب نزول هذه الآية: أن رجلاً أنكر القرآن وكذّب رسول الله فأرسل الله صاعقة أهلكته، وفي رواية أنها نزلت في كافر ذكر الله بغير ما يليق به فأرسل الله عليه صاعقة أهلكته ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ في اللَّهِ﴾ وهؤلاء الذين أصابهم الله بالصواعق أصابهم في حال خصومتهم لله سبحانه بادعائهم أن له شركاء، وإنكارهم

(١) تأمّل كيف قدّم القرآن الخوف على الطمع إذ قد تقع الصواعق من أول برق ولا يحصل المطر إلاّ بعد تواتر البرق. ولمّا كان الأمر الذي يحصل الخوف من وقوعه يحصل من أول برق ذكر القرآن الخوف أولاً ثم أتى بعد ذلك بذكر الطمع ثانياً وهو حصول المطر.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي.

(٣) رواه الإمام مالك في موطئه والبخاري في كتاب الأدب.

البعث يوم القيامة بالرغم من الأدلة الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ والله سبحانه شديد القوة، وشديد العقوبة لأعدائه.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾دعوة: بمعنى الدعاء، أي أن الله هو الحق الذي لا يُدعى سواه، فهو الذي يسمع فيجيب. وقيل الدعوة هنا بمعنى العبادة أي أن عبادة الله هي الحق والصدق﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي والمشركون الذين يتوجهون بالدعاء والعبادة إلى الأصنام لا تستجيب لدعائهم لأنها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع، فكل من يتوقع منها الاستجابة لدعائه يكون حاله كما وصف الله ﴿إلاَّ كبَاسِطِ كفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ أي حاله كمن بسط كفيه إلى الماء يطلب منه أن يصل إلى فيه، والماء لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه، فكذلك المشركون الذين يعبدون الأصنام ويتوجهون لها بالدعاء لا تقدر على نفعهم ﴿وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاَّ في ضَلالٍ﴾ وما دعاء الكافرين إذا دعوا أصنامهم لتلبية حاجاتهم إلاّ في ضياع وخسار.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن في السَّمٰواتِ وَالأرْضِ طَوعاً وَكَرْهاً﴾ المراد بالسجود هنا الخضوع والانقياد والاستسلام، أي أن جميع من في السماوات والأرض من الإنس والجن والملائكة خاضعون لعظمة الله، منقادون لإرادته مختارين أو مقهورين شاءوا أم أبوا يستوي في ذلك مؤمنهم وكافرهم، فانقياد المؤمن لله يقع منه اختياراً حيث يخص خالقه بالعبادة والسجود له، وأما الكافر فإنه وإن لم يسجد لله طوعاً فهو في الحقيقة منقاد لأمر الله كُرهاً في الحياة والموت، وفي حال الشدة والمصائب ﴿وَظِلالُهُم بالغُدُوِّ والآصَالِ﴾ وكذلك تسجد لله وتخضع ظلال كل شيء بالغدو والآصال، أي أول النهار وآخره، وخص الله هذين الوقتين بالذكر لأن الظلال تعظم وتكبر فيهما. والظلال ليست أشخاصاً يتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة ولكنها داخلة تحت مشيئة الله يصرفها على ما أراد، فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب تبعاً لتحركات الشمس فتمتد وتتقلص بتصريف الله سبحانه.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

شرح المفردات

أولياء: جمع وليّ وهو النصير الذي يُبتغى منه النفع.

يستوي: يتساوى ويتماثل.

القهّار: المتغلب المسيطر على خلقه، والقهار من صيغ المبالغة لا ينبغي إطلاقها إلا على الله تعالى.

انتفاء الشركاء عن الله

وبعد أن بيّن الله سبحانه أن كل ما في السموات والأرض خاضع له ومنقاد لإرادته أمر رسوله محمداً أن يظهر للمشركين عبدة الأصنام طريق الهداية وذلك بمحاورتهم سائلاً ومجيباً لإثبات وحدانية الله وعبادته وحده.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰواتِ والأرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من رب السماوات والأرض المالك لهما والمدبّر لشؤونهما؟ ولمّا كان الجواب معلوماً عندهم أمر الله رسوله أن يكون هو المجيب: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ والمشركون يعترفون بذلك ولا ينكرونه وهذا ما حكاه الله بقوله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان].

ثم أمر الله رسوله محمداً بأن يلزم المشركين الحجة على بطلان ما يعبدونه

من أصنام على سبيل التبكيت والتقريع: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكون لأنفُسِهِم نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ أي قل لهم يا محمد: أبعد أن علمتم أن الله هو رب السماوات والأرض والمدبر لشؤونهما فَلِمَ اتخذتم من غير الله أصناماً تعبدونها وتطلبون منها النصرة والنفع وهي جمادات لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً، ولمّا كانت الأصنام عاجزة عن تحصيل المنفعة لنفسها ودفع المضرة عنها فهي بالأحرى تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها.

﴿قُل هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾ قل لهم يا محمد هل يتساوى الأعمى وهو الكافر الذي لا يرى حقيقة الشيء، ولا يهتدي إلى الطريق الصحيح، مع المؤمن الذي يبصر الحق فيتبعه، ويعرف الهدى فيسلكه ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ﴾ أم هل تتساوى الظلمات والمراد بها الكفر والضلال مع النور الذي هو الإيمان بوحدانية الله المستحق وحده للعبادة ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِم﴾ هنا استفهام للإنكار والمعنى: بل أجعل المشركون شركاء لله وهي الأصنام خلقوا خلقاً شبيهاً بما خلقه الله فتشابه خلق الأصنام مع خلق الله عندهم، كلا ليس الأمر كذلك فالمشركون يعلمون أن الأصنام لم يصدر عنها أي خلق، لذا كانت عبادتهم للأصنام وإطلاق صفة الألوهية عليها هو محض السفه والجهل.

وبعد أن ألزمهم القرآن الحجة ببطلان عبادة الأصنام أوصلهم إلى النتيجة المتوخاة: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُو الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله سبحانه خالق كل شيء في الوجود، وهو الواحد الذي لا شريك له، القهّار لكل متكبر، المتغلب المسيطر على عباده.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ
ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

شرح المفردات

فسالت أودية: فسالت مياه أودية، والأودية جمع واد وهو كل منخفض بين جبلين.

فاحتمل: فحمل.

زبداً: ما يعلو وجه الماء عند اضطراب أمواجه من الرغوة وحطام الأشياء.

رابياً: مرتفعاً فوق الماء.

الحلية: ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة.

متاع: كل ما ينتفع به.

جفاء: ما يرميه السيل ويقذفه إلى جوانب الوادي.

فيمكث: فيبقى.

استجابوا لربهم: أجابوا ولبوا ما دعاهم إليه من توحيده وطاعته.

الحسنى: مؤنث الأحسن، والمراد بها المثوبة الحسنة في الآخرة وهي الجنة.

المهاد: الفراش والمستقر.

البقاء للأصلح

ويتابع القرآن فيمثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله بهذه الصورة البليغة:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فالله سبحانه أنزل من السماء مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

بِقَدَرِهَا﴾ فسال الماء في الأودية بين الجبال والمرتفعات بالمقدار الذي قدَّره الله لنفع الناس ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾ فحمل السيل الذي حدث من هطول الأمطار رغوة وحطام أشياء تعلو سطحه. فهنا يشبّه الله الكفر والباطل بالزبد الذي يعلو الماء ثم يضمحل ويعلق بجنبات الوادي ولا يحصل منه على نفع.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ وهنا مثال آخر ضربه الله بالمعادن التي يوقد عليها في النار لصهرها وإذابتها لتنقيتها من الشوائب تيسيراً للانتفاع بها في صناعة الحلي من الذهب والفضة ونحوهما، أو ما ينتفع به من الأدوات والأواني وأثاث البيت المتخذ من المعدن المصهور كالحديد والنحاس والألمنيوم، فكل هذه المعادن وغيرها تحمل زبداً كزبد الماء عند صهرها لا ينتفع به ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فأما الزبد والخبث الذي لا خير فيه مما خالط المعادن فيطرح ويرمى جانباً ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وأما ما ينتفع به الناس من الماء الصافي الذي ترتوي به الزروع، وما استخلص من المعادن الصافية فيبقى في الأرض.

فالباطل هو شبيه بالزبد فإنه مهما علا وظهر فإن مصيره إلى اضمحلال وفناء حيث يرمى به ويطرح جانباً، وأما الحق فهو الباقي الذي يمكث في الأرض، وهذا المثل ينطبق على الكفر والإيمان، فالكفر كالزبد، والإيمان هو الباقي الذي ينفع الناس ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي أنه تعالى بيّن للناس هذه الأمثال لبيان الفرق بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر ليعتبروا بذلك.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ أي للمؤمنين الذين أجابوا ربهم ولبوا دعوته من التصديق بوحدانيته واتباع رسله والعمل بشرائعه لهم المثوبة الحسنة في الآخرة وهي الجنة ولهم في الدنيا الحياة السعيدة التي لا يشوبها كدر ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ والذين لم يقبلوا ما دعاهم إليه ربهم من الإيمان بوحدانيته ولم يطيعوه

في ما أمرهم به وما نهاهم عنه، هؤلاء يتمنون ﴿**لَوْ أنَّ لَهُم مَا في الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ**﴾ أي لو أنهم يملكون جميع ما في الأرض من متاع وأموال ويملكون أيضاً مثل ذلك معه لقدموه فدية لتخليص أنفسهم من عذاب الله، هذا إذا كان العذاب يفتدى بالمال وغيره ﴿**أُولَئِكَ لَهُم سُوءُ الحِسَابِ**﴾ أي أولئك يحاسَبون على جميع ذنوبهم لا يُغفر لهم منها بشيء، ولا تُقبل حسناتهم لأنهم ما فعلوها ابتغاء مرضاة الله ﴿**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ**﴾ ومسكنهم ومقامهم جهنم ليعذَّبوا بنارها، وبئس هذا الفراش المعدّ لهم هناك.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

شرح المفردات

يتذكَّر أولو الألباب: يتعظ أصحاب العقول السليمة.

ولا ينقضون الميثاق: ولا يخلفون العهود التي التزموا بها بين الله وبين الناس.

يَصِلُون ما أمر الله به أن يُوصل: أي من البر بالوالدين وصلة الأرحام ونصرة المؤمنين.

ابتغاء وَجْهِ ربهم: أي طلباً لرضاء ذات الله.

يدرؤونَ: يَدْفعون.

عُقبى الدار: العاقبة الحسنة لدار الدنيا وهي الجنة.

سلام عليكم: أمان لكم من المحن والآفات.

خصال المتقين ومآلهم في الآخرة

وبعد أن بيّن الله أن الذين استجابوا له بالطاعة لهم المثوبة الحسنة في الآخرة قارن بعد ذلك بين صفات المؤمن والكافر:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ استفهام للإنكار لمن يتوهم المماثلة بين المؤمن الذي يعلم أن المُنزَل إليك يا محمد من ربك من الوحي هو الحق الذي لا ريب فيه فاهتدى به، وبين الكافر الذي عميت بصيرته فلم يرَ أمامه ولم يهتدِ بهدى الله فصار يتخبط في ظلمات الكفر والضلال ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولو الأَلْبَابِ﴾ إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها أصحاب العقول السليمة.

ثم تأتي الآيات التالية معدّدةً صفات أولي الألباب الذين اهتدوا بهدى الله:

الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ولا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ والوفاء بعهد الله هو الاعتراف بوحدانيته وربوبيته لهذا الكون والقيام بما أَمَرَ من الطاعات والامتناع عما نهى عنه من المعاصي، وذلك يشمل جميع التكاليف التي عهد الله إلى الناس الأخذ بها على يد رسله، فما من فضيلة في الخُلُق الإنساني، ولا عدالة في المعاملة إلاّ وهي داخلة في عهد الله، وفي إضافة العهد إلى الله حافز للامتثال لأوامره ﴿وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ والميثاق ما يشدّد به العهد ويؤكد، فهؤلاء المؤمنون لا يقطعون المواثيق والعهود التي ألزموا بها أنفسهم سواء أكانت بينهم وبين ربهم أو بينهم وبين الناس، والعهد أولاه الإسلام عناية خاصة فقال النبي محمد ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[1].

الصفة الثانية: ﴿والَّذِين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هذا وصف عام يتناول أموراً شتى أمر الله بصلتها مثل: صلة الرحم، وإكرام الجار، ومراعاة حقوق

---

(١) رواه الإمام أحمد.

أخوّة الإيمان المذكورة في القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

وكذلك صلة الأغنياء بالفقراء بالإحسان إليهم، والعطف على الأيتام، والتوادّ بين الناس.

الصفة الثالثة: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ والخشية خوف يشوبه تعظيم وقيل هي أشد الخوف، أي يخافون ربهم خيفة شديدة تحملهم على فِعْلِ ما أمرهم به والامتناع عما نهاهم عنه. أما خوفهم سوء الحساب فهو خوفهم من أهوال يوم القيامة وما فيه من حساب دقيق على أعمالهم، وخوفهم من عدم الصفح عن ذنوبهم فتحملهم هذه الخيفة على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحَاسبوا.

الصفة الرابعة: ﴿والَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي صبروا على تكاليف ما أوجب عليهم ربهم فعله من طاعته، وصبروا على البلايا ومصائب الحياة احتساباً لرضاء الله، لأن البلايا حصلت بقضاء الله، وكل ما صدر منه سبحانه فهو خير لذاته وهو يثيب عليها. وتأمل قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِم﴾ أي أنهم رأوا فيما أصابهم من بلايا ما يجعلهم يحصرون تفكيرهم في تذكر جلال ربهم حتى لكأنهم يشاهدونه، وهذا مقام رفيع من مقامات الإيمان يخفف وقع المصيبة، ومرتبة عالية يحوز بها الإنسان على رضاء ربه.

الصفة الخامسة: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعلانِيَةً﴾ أي أدوا الصلاة كاملة مستوفاة لشروطها وأركانها، وأنفقوا بعض ما رزقهم الله من أموال على الفقراء والمحتاجين. وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ حثٌّ على الإنفاق، فكأن الله يقول لهم: إن الذي دعوناكم للإنفاق به على الفقراء هو رزق أغدقناه عليكم فلا عذر لكم في البخل على المحتاجين. أما قوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعلاَنِيَةً﴾ فهو بيان أن الإنفاق في السرّ أفضل لأنه يخلو من الرياء ولا

يخدش كرامة الفقير، وقد يكون الإنفاق علناً مستحباً كما إذا ظن أن عمله سيكون قدوة حسنة لغيره وبالأخص في فريضة الزكاة.

الصفة السادسة: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأفعال، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود] أو بمعنى أنهم يدفعون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه، أو يدفعون الشر بالخير، أو يدفعون سَفَهَ الجاهل بالحلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت].

وهذا خلق عظيم يطفىء لهيب الشر ويحول دون امتداده ويشيع الود بين الناس.

ثم يختم الله هذه الآيات بيان ما أعد لهؤلاء المؤمنين من مثوبة بقوله:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي أولئك الموصوفون بهذه الصفات الكريمة لهم العاقبة الحسنة في الآخرة جزاء طاعتهم لربهم.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِم وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَاتِهِمْ﴾ أي أولئك الذين قدّموا في دنياهم العمل الصالح لهم جنات فيها إقامة واستقرار يدخلونها ويدخل معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم، وإن لم يبلغوا مرتبتهم بالصلاح ليَأْنَسُوا بِهِم وتَقرّ أعينهم بهم، وصلاحهم هو إيمانهم بوحدانية الله واتباعهم أوامره وأوامر رسوله محمد ﷺ ﴿والملائِكَةُ يَدْخُلُون عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبواب الجنة للاحتفاء بهم ولتهنئتهم قائلين لهم: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي سلمتم من الآفات، أو دامت لكم السلامة بسبب صبركم على طاعة الله، واحتمالكم آلام الحياة ومصائبها ابتغاء وجه الله ﴿فَنِعْمَ عُقْبى الدَّارِ﴾فنعم عاقبة دار الدنيا هذه الجنات وما فيها من نعيم دائم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ
ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ
إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا
بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

شرح المفردات

ينقضون عهد الله: المراد بعهد الله ما أوجبه عليهم من طاعته ونقضه يكون بعصيان الله.

من بعد ميثاقه: من بعد توثيقه وتأكيده.

اللعنة: الطرد من رحمة الله.

سوء الدار: أي سوء عاقبة دار الدنيا وهي جهنم.

يبسط الرزق: يوسّع الرزق.

ويقدر: يضيّق الرزق.

متاع: شيء قليل يتمتع به.

لولا أنزل عليه آية من ربه: هَلاّ أُنزل على محمد معجزة من ربه تكون دليلاً على صدقه.

أناب: رجع إلى الله بالتوبة.

طوبى لهم: غبطة لهم وقرة عين وكرامة من الله لهم.

وحسن مآب: وحسن مرجع يرجعون إليه يوم القيامة.

خصال الكافرين ومآلهم في الآخرة

وفي مقابل الصفات الحسنة التي وصف الله بها عباده الصالحين تأتي عقبها الصفات السيئة للأشقياء الذين خرجوا عن طاعة الله:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ أي والذين ينقضون عهد الله بما أوجبه عليهم سبحانه من طاعته والاعتراف بربوبيته والعمل بما أوصى به من التكاليف، ونقض العهد هو إبطاله وعدم الوفاء به ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد ما أكدوا التزامهم به وقبولهم إياه ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي يقطعون كل ما أوجب عليهم وصله ويشمل وصل رسوله محمد ﷺ باتباع سنته ونصرة دينه، ووصل المؤمنين بالمعونة والمحبة، ووصل الأرحام بالمودة والتعاطف والإحسان ﴿وَيُفْسِدُون فِي الأَرْضِ﴾ وإفسادهم في الأرض هو بالظلم وإثارة الفتن وارتكاب المعاصي واعتدائهم على المؤمنين ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُم سُوءُ الدَّارِ﴾ أولئك الموصوفون بتلك الصفات لهم الطرد والإبعاد من رحمة الله، ولهم في الآخرة الدار السيئة وهي جهنم حيث تكون مقرًّا لهم.

وقد كان زعماء المشركين من أهل مكة في بدء الإسلام على جانب من الثراء وكانوا يجعلون ذلك برهاناً على أنهم المستحقون للكرامة فردّ الله على زعمهم الباطل بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي أن شأن الرزق يدبره الله بحكمته فقد يوسع الرزق على الكافر استدراجاً له لزيادة معاصيه، ويضيق الرزق على المؤمن امتحاناً له وزيادة في أجره، فهو سبحانه يعطي المؤمن وغير المؤمن دون أن يجعل بسط الرزق دليلاً على رضاه ولا الإقتار دليلاً على سخطه ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وفرح هؤلاء الذين بسط الله لهم الرزق في الحياة الدنيا فركنوا إليها مع ما هم عليه من الكفر ومعصية الله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ وما متع الحياة الدنيا بالنسبة إلى متع الدار الآخرة ونعيمها الدائم إلاّ متع ضئيلة فانية لا بقاء لها ولا يعتد بها.

من شبهات الكافرين

ويتابع القرآن فيذكر ما أثاره الكافرون من شبهات على نبوة محمد بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وآية: معناها هنا: المعجزة، أي هلاّ أنزل على محمد معجزة من ربه تكون حجة على نبوّته؟ وهذا ما حكاه القرآن عنهم أيضاً في سورة الأنبياء ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ أي فليأتنا محمد بمعجزة تكون دليلاً على نبوّته مثل معجزات موسى وعيسى وصالح عليهم السلام. وهؤلاء الذين اقترحوا ذلك لم يدركوا أن القرآن الذي يُتلى عليهم هو معجزة في أسلوبه وبلاغته وما يحتويه من تشريع وهدى، وما جاء به من أخبار الغيب عن الأنبياء والرسل، فما لهم يقترحون إنزال معجزة على محمد كمعجزات الأنبياء السابقين التي اندثرت وأصبحت خبراً من الأخبار، وعرضة لإنكار الملحدين، بينما القرآن هو معجزة باقية على مرّ الزمن يدركها ويلمسها كل من أوتي حظاً من العلم والمعرفة ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين إن الله يضل من يشاء ممن يختار الضلال، فمن كان على صفتكم من العناد والإصرار على الكفر فلا يوفقهم الله إلى الهداية ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ويهدي الله سبحانه إلى الحق وإلى الإسلام من رجع إليه بالتوبة وأقلع عما كان عليه من الكفر والمعاصي. فالخطوة الأولى تبدأ من العبد في رجوعه إلى الله وبعدها تأتي الخطوة التالية وهي الهداية من الله.

وهؤلاء الذين يرجعون إلى الله وصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وذكر الله يحتمل أن يكون المراد منه: القرآن، وإطلاق اسم الذكر على القرآن جاء في آيات شتى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

فهؤلاء الذين آمنوا تطمئن قلوبهم أي تسكن عند تلاوتهم القرآن الذي يعرض

الدلائل على وحدانية الله بما ينزع الريب من النفوس، وبما يرون في القرآن من آيات بيّنات تشهد بإعجازه وأنه من عند الله، وهذا التفسير يندرج مع ما سبق حيث قال المشركون: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

وقد يراد بذكر الله الاتصال به بالقلب واللسان وتذكّر جلاله وعظمته وباهر قدرته، وقد دعا القرآن إلى ذكر الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب].

وذكر الله تطمئن به قلوب المؤمنين لما تستشعر من رحمته وفضله وغفرانه للذنوب، وأن بيده النفع والضر، وأنه القادر على إجابة الدعاء وكشف الضر مما يزيل عن النفس ما تشعر به من قلق واضطراب، وفي الوقت نفسه يضفي ذكر الله على القلب طمأنينة وراحة نفسية.

وذكر الله له مظاهر شتى: فهو يكون عن طريق التحميد والتسبيح والتكبير والتهليل والاستغفار له سبحانه: فالتحميد هو قولك: (الحمد لله) والتسبيح هو قولك (سبحان الله) والتكبير هو قولك: (الله أكبر) والتهليل هو قولك (لا إله إلاّ الله) والاستغفار هو قولك (أستغفر الله).

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ هذه الآية تبين أهمية ذِكْر الله إذ به تحصل الطمأنينة للقلب، وافتتحت الجملة بأداة الاستفتاح (ألا) المفيدة للتنبيه للاهتمام بمضمونها، وللإغراء بالإكثار من ذكر الله سبحانه، كما ذكرت تطمئن بصيغة (المضارع) الذي يفيد التجدد والاستمرار ودوام الاطمئنان.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ فالقرآن لا يذكر الإيمان بالله إلا ويقرنه بالعمل الصالح، لبيان أن الإيمان من لوازمه العمل الصالح، وأن العمل الصالح لا يُقبل إذا لم يقترن بالإيمان بالله ويكون خالصاً لوجهه الكريم. ومعنى ﴿طُوبى لَهُم﴾ أي نِعْمَ ما لهم، أو غبطة لهم، أو خير لهم ﴿وَحُسْنُ مآبٍ﴾ أي أن مرجعهم إلى الله سيكون مرجعاً حسناً.

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾

شرح المفردات

خلت: مضت.

إليه متاب: إليه مرجعي في كل أموري وإليه توبتي.

أفلم ييأس: أي أفلم يعلم.

قارعة: من القرع وهو ضرب الشيء بشيء آخر بقوة والمراد بالقارعة: الرزية والمصيبة والكارثة.

الميعاد: بمعنى الوعد، والوعد عبارة عن الأخبار قبل وقوعها.

مكانة القرآن العظمى

ويتابع القرآن فيبين أن محمداً ﷺ هو رسول من الله أرسله سبحانه إلى أمته كما أرسل رسلاً قبله إلى أممهم:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي كما أرسلنا الأنبياء قبلك يا محمد إلى أممهم، كذلك أرسلناك إلى أمة قد مضت قبلها أمم كثيرة ﴿لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لتقرأ على مسامعهم هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالله المتصف بصفة الرحمن

الذي وسعت رحمته كل شيء وينسبون له شركاء ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله المتصف بصفة الرحمن الذي كفرتم به وعبدتم غيره هو ربي وحده دون غيره ولا معبود لي سواه. روي في أسباب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لمّا قال لكفار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ فقيل لهم: إن الرحمن الذي أنكرتم إطلاق اسم الله عليه هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيهِ مَتَابِ﴾ أي على الله وحده اعتمدت في الأمر كله، وإليه مرجعي ومرجعكم وإليه توبتي.

ثم يعود بنا القرآن إلى الرد على بعض اقتراحات المشركين، من ذلك أن نفراً من مشركي مكة اجتمعوا بالنبي ﷺ فقالوا: إنْ سرّك يا محمد أن نتبعك فسيّر لنا بقرآنك الجبال عن حوالي مكة فأذهِبها عنا لتتسع أرضنا فنزرعها وشقّق الأرض وفجّر لنا فيها الأنهار والعيون كما في أرض الشام، أو أحْي لنا فلاناً وفلاناً يخبروننا أنَّ ما تقوله حق، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً[1] سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾ والمعنى: لو أنّ كتاباً مقروءاً من الكتب السماوية تحركت به الجبال من أماكنها وشقّقت به الأرض عن أنهار وعيون أو كُلِّم به الموتى بعد إعادة الحياة عليهم. وجواب (لو) في صدر الآية محذوف لدلالة المقام عليه وتقديره: لكان هذا القرآن. ويصحّ أن يكون المعنى: ولو أن كتاباً مقروءاً من الكتب السماوية فسيِّرت به الجبال أو قطِّعت به الأرض أو كلِّم به الموتى لما آمنوا لشدة عنادهم وكفرهم ﴿بَل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ أي أن الأمور كلها بيد الله يفعل ما يريد وفقاً لمشيئته وحكمته ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ ييأس: بمعنى يعلم كما جاء في بعض لغات العرب، أي ألم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله هداية الناس جميعاً لفعل ذلك على سبيل الإلزام والقهر، ولكنه لم يشأ أن يفعل ذلك بل جعل الهداية تابعة لاختيار الإنسان بعد أن

(١) قرآناً: المراد بالقرآن هنا: معناه اللغوي، أي الكلام المقروء.

أنزل الشرائع وبيّن الحق من الباطل. ومن المفسرين من حمل معنى كلمة ييأس على معناها المعروف وهو القنوط، أي أفلم يقنط الذين آمنوا من إيمان المشركين لأنه سبحانه لو يشاء لهداهم جميعاً، وحيث إنهم لم يهتدوا وأصروا على الكفر كان من حق المؤمنين أن يقنطوا من إيمانهم.

ثم يحذّر الله الكافرين من التمادي في كفرهم:

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي ولا يزال يا محمد الذين كفروا من قومك يصيبهم بسوء أعمالهم مصيبة أو كارثة تروعهم كالذي يحدث لهم حيناً بعد حين من القتل والأسر وأخذ غنائمهم في غزوات المسلمين لهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ أو تحل تلك المصيبة في مكان قريب من دارهم فينتابهم الهلع والخوف ترقباً أن ينزل بهم مثلها. أو بمعنى: أو تنزل أنت يا محمد قريباً من دارهم محاصراً لهم آخذاً بخناقهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ أي حتى يأتي وعد الله بهلاكهم وهزيمتهم ونصر المؤمنين عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ إن الله لا يخلف ما وعد به.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ
ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى
وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

شرح المفردات

فأمليت للذين كفروا: أي أمهل الله الذين كفروا وتركهم فترة من الزمن بدون عقاب.

أخذتهم: أي أخذتهم بالعقوبة وأنزلت عليهم العذاب.

قائم على كل نفس: رقيب ومهيمن عليها وهو الله سبحانه.

تنبّئونه: تخبرونه.

أم بظاهر من القول: أم تسمونهم بباطل من القول.

زُيّنَ: حُسّنَ.

مكرهم: مكر الكفار بالرسل هو القدح في دعوتهم وتدبير المعوقات عن الاستجابة لهم.

واقٍ: مانع أو حافظ.

أُكُلها دائم: ثمرها باقٍ لا يغيب ولا ينقطع.

عقبى الذين اتقوا: أي مآلهم وعاقبتهم.

تهديد للكفار ووعدٌ للمؤمنين بحسن المثوبة

ثم ينتقل القرآن إلى مواساة رسول الله محمد ﷺ بسبب ما يلاقيه من سخرية من قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي كما سخر بك يا محمد الكفار فقد سخر الكفار السابقون برسل كثيرين أرسلناهم إليهم، فاصبر على أذى قومك وامض لأمر ربك في دعوتهم إلى دين الله ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِين كَفَرُوا﴾ أي فأمهلتهم وتركتهم مدة من الزمن دون عقاب لعلَّهم يثوبون إلى رشدهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُم فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ثم أخذتهم بالعذاب الذي أنزلته بهم وكان عقابي لهم هائلاً ومريعاً، والاستفهام هنا للتعجب ممّا حلَّ بهم والتهويل من شدته وفظاعته.

ثم يقارن القرآن بين عبادة الله وعبادة الأصنام

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فالقائم هنا هو الله سبحانه والمقصود هو تولّيه أمور خلقه وهيمنته على شؤونهم وتدبيره للآجال والأرزاق وإحصاء أعمالهم لمجازاتهم عليها يوم القيامة. والمعنى: أفمن كان شأنه كذلك وهو الله كمن ليس بقائم على شيء وهي الأصنام التي أشركوها مع الله في العبادة وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ والحال أن المشركين جعلوا الأصنام شركاء لله مع عدم فائدتها ﴿قل سَمُّوهُم﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين على سبيل التأنيب والتبكيت: بيّنوا أسماء هذه الأصنام التي تعبدونها ولو سمّوها آلهة لكذبوا، لأنها أحقر من أن يكون لها أسماء تدل عليها ﴿أمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ في الأرضِ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، أي أتخبرون الله بشركاء له لا وجود لهم في الأرض لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتخصيص الأرض بالذكر لأن المشركين زعموا أن لله شركاء فيها ﴿أمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي بل أتسمون الأصنام شركاء لله بكلام لا يقصد به معنى معقول، وإنما هو من الكلام الظاهر الذي إذا أردت أن تتفحصه تجده لا يحوي شيئاً ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كفروا مَكْرُهُم﴾ أي

دع عنك يا محمد مجادلتهم فإن هؤلاء المشركين قد حسَّن لهم الشيطان باطلهم ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي منعوا الناس عن طريق الحق والهدى ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يضلله الله لعدم استعداده للهدى وإصراره على الكفر والظلم فليس له من هاد يوصله إلى الحق وينجيه من عاقبة ضلاله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الحَياةِ الدُّنْيَا﴾ أي لهؤلاء الكفار عذاب في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والمحن ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ ولعذابهم في الدار الآخرة أشد من تعذيب الله لهم في الدنيا ﴿وَما لَهُم مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ وليس لهم أحدٌ يقيهم من عذاب الله إذا أراد تعذيبهم.

وبعد هذا الوعيد للكفار أتبع القرآن ذلك ببيان ثواب المتقين في الآخرة:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة التي وعدها الله لعباده المتقين الذين يقون أنفسهم الكفر والمعاصي ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وهذا ما يعطي النضرة والازدهار في أشجارها وثمارها ويضفي الابتهاج والمسرة للمقيم فيها ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي ثمرها باقٍ لا ينقطع في أي وقت من الأوقات، وظلها دائم أيضاً لا شمس فيها ولا زمهرير ولا ظلمة تقبض النفس، فإن حالة الظلام لا تسمّى ظلاً، وإنما يقال الظل للحالة التي فيها ضوء خال من حرارة الشمس ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِين اتَّقَوْا﴾ وَعُقْبَى الشيء: آخره ومنتهاه أي هذه الجنة عاقبة الذين اتقوا ربهم بتجنب الكفر والمعاصي ﴿وعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ﴾ بينما عاقبة الكافرين بالله عذاب النار.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن
يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو
وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم
بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ
وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

شرح المفردات

والذين آتيناهم الكتاب: الكتاب المراد به هنا التوراة والإنجيل.

الأحزاب: الجماعات والأقوام المتشابهون في ميولهم وعقائدهم.

وإليه مآب: وإلى الله المرجع والمصير.

وليّ: نصير.

واق: حافظ ومانع من عذاب الله.

بآية: بمعجزة.

لكل أجل كتاب: لكل وقت حكم معين تدعو إليه الحكمة الإلّهية.

يمحو الله: يزيل الله.

أم الكتاب: اللوح المحفوظ.

وظيفة رسل الله

ويتابع القرآن فيتحدث عن المؤمنين الذين يفرحون بما أنزل على محمد ﷺ من الوحي الإلهي:

﴿والَّذِين آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب يَفْرَحُون بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ﴾ والمراد بالكتاب هنا: التوراة والإنجيل، أي والذين أسلموا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون

بما أُنزِلَ إليك يا محمد من ربك حين استماعهم للقرآن وهو يُتلى عليهم إيماناً منهم بأنه كتاب الله حقاً أنزله على رسوله محمد ﷺ وذلك لِمَا رأوا في التوراة والإنجيل من البشارات على مجيء نبي بعد أنبيائهم تنطبق صفاته على صفات محمد ﷺ ومن هؤلاء الذين أسلموا من اليهود عبد الله بن سلام وسواه، ومن النصارى من آمن من أهل نجران واليمن والحبشة.

والآية تنطبق أيضاً على الذين أسلموا من العرب ويكون المراد من الكتاب هنا القرآن. فهم كانوا يفرحون بما كان ينزل على رسول الله من الوحي.

﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض ما أنزل عليك يا محمد من الوحي من ربك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم، ولم يسمّ القرآن هؤلاء الذين ينكرونه، إهمالاً لشأنهم وعدم الاعتداد بهم ﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أن أعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ لفظ (إنما) يفيد حصر المعنى، أي أني ما أمرت إلا أن أعبد الله وحده، وأُمِرْت أن لا أُشْرِكَ به شيئاً في عبادته، وهذا يشمل إبطال كل معبود غير الله ﴿إِلَيْهِ أدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ إلى عبادة الله وحده أدعو الناس جميعاً وإليه مرجعي ومصيري ومصيركم للجزاء والحساب يوم القيامة.

بهذه الكلمات القليلة لخَّصَت هذه الآية الكريمة أهداف الدعوة الإسلامية التي أمر الله بها رسوله محمداً ﷺ وهي: عبادة الله وحده والتخلي عن عبادة ما سوى الله مع التأكيد بأن المرجع إلى الله. وإذا توجهت البشرية جمعاء إلى عبادة الله وحده توحّدت قلوبها نحو هدف واحد وانتفى عنها الكثير من الخلافات والصراعات الدامية.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا﴾ أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء السابقين بلغاتهم كالتوراة والإنجيل، أنزلنا إلَيك يا محمد هذا القرآن بلغة العرب ليسهل على قومك فهم معناه والرجوع إليه في الأحكام، وإنما سمي القرآن (حُكماً) أي حاكماً بين الناس لما فيه من الأحكام والشرائع التي يحتاج إليها الناس ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي ولئن اتبعت يا محمد أهواء المشركين بدعوتهم إياك إلى ملة آبائهم

﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من بعد ما جاءك من العلم اليقيني بأن الإسلام هو الدين الحق ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾ أي ليس لك من دون الله وليّ ولا ناصر فينقذك منه ويقيك من عذابه إن أراد عذابك والخطاب هنا للنبي محمد ﷺ والمقصود أمته لأن النبي ﷺ معصوم عن الخطأ، ويكون ما في الآية وعيداً لأهل العلم إن هم حادوا عن طريق الحق واتبعوا سبل أهل الضلالة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُم أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾ هذه الآية رد على الذين عابوا على النبي ﷺ تعدد نسائه، فأجاب الله بهذه الآية التي فيها إشارة إلى النبيّ سليمان والنبي داود اللذين كانت لهما زوجات كثيرات. والنبي محمد ﷺ تزوج بإحدى عشرة امرأة وهو استثناء خاص به دون قومه. والمتأمل في حياة النبي يرى أن حياته الأولى اقتصرت على زوجة واحدة إلى أن بلغ الثالثة والخمسين من عمره، فلمّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة حدثت أمور اقتضت أن يصاهر القبائل لمصلحة الإسلام، وبعض نساء المؤمنين قتل أزواجهن في ساحة الحرب فتزوجهن النبي ﷺ لأنهن أصبحن بلا معيل، وإحدى زوجاته تزوجها النبيّ لإبطال تشريع معمول في الجاهلية قبل الإسلام وهو التبني.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِي بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هنا يردّ الله على قول بعض الكفار الذين قالوا: لو كان محمد رسول الله حقًّا لجاء بالمعجزات التي طلبناها منه فكان جواب الله لهم: ما صحّ وما استقام لرسول من الرسل أن يأتي لقومه بمعجزة إلاّ بإذن الله وإرادته فهو وحده يحكم بما يشاء ويفعل ما يريد ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أمر قضاه الله كتاب كتبه في اللوح المحفوظ، ولكل وقت حكم يكتب على الناس حسبما تقتضيه المشيئة الإلهية فلا المعجزات التي اقترحها الكفار بنازلة قبل أوانها ولا العذاب الذي خُوِّفوا به بواقع في غير وقته، وليس لضرّ أو فتح أن يحصل قبل أوانه.وقيل معنى ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل وقت من الزمان، أو لكل جيل كتاب من عند الله فيه تشريع يناسب حالهم، فالأحكام ينزلها الله على رسله بحيث يراعى فيها الصالح العام لقومهم بما تقتضيه الحكمة الإلّهية.

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي يمحو الله ما يشاء من الشرائع والأحكام بنسخها وإبطال حكمها، ويُبقي ما يشاء منها ثابتاً فلا يبدلها بغيرها، والشرائع التي تتبدل هي كأحكام الحلال والحرام وأصول المعاملات، أما العقائد وأصول الأخلاق فلا تتبدل ولا تختلف من رسول إلى رسول.

وقيل المراد من الآية: إن الله يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، والمحو يشمل الأقدار من مصائب وأرزاق وأعمار وسعادة وشقاء، ويبدّل هذا بهذا، والدعاء يفيد في رد البلاء، وقد يؤخر في أجله إلى الوقت الذي قضى فيه عليه بالموت بسبب صلة الرحم والبر بوالديه، وقد جاء في الحديث الشريف: «من سَرَّه أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره[١] فليَصِلْ رحمه»[٢].

وقد روي أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف ببيت الله الحرام وهو يبكي: اللهم إن كنتَ كتبت عليَّ شقوةً أو ذنباً فامْحُه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة. ورُوي عن ابن مسعود أنه كان يقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل الشقاء فامحني وأثبتني في أهل السعادة.

وهناك تفسير لابن عباس يخالف ذلك وهو قوله: إن الله يدبر أمر العباد فيمحو ما يشاء ويثبت إلاّ الشقاء والسعادة والموت والحياة.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ وأم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما خلْقه عاملون، وقيل المراد بـ أم الكتاب أصل الكتب المنزلة على أنبيائه وهو اللوح المحفوظ الذي لا يُغيّر ولا يبدل، وسمي اللوح المحفوظ بـ أم الكتاب لأن جميع الأشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب الإلهية المنزلة على رسل الله، وأن العلوم كلها تنسب إليه وتتولد منه، وأن كل كائن مكتوب فيه.

---

(١) ينسأ له في أثره: يؤخّر له في أجله.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ
وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ
يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ
لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ
كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

شرح المفردات

من أطرافها: من جوانبها.

لا معقّب لحكمه: أي لا رادّ لما يحكم.

مكر: المكر هو تدبير الشر خفيه.

فللّه المكر جميعاً: أي أنه تعالى يعلم المكر كله فلا تخفى منه خافيه، وعنده جزاء مكرهم.

عُقبى الدار: عاقبة دار الدنيا.

علم الكتاب: علم التوراة والإنجيل.

نبوءة للقرآن باندحار الكافرين

وأخيراً يخبر الله رسوله محمداً بما ينتظره من نصر وما سيصيب المشركين من عذاب وهلاك:

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي وإن أريناك يا محمد في حال حياتك بعض ما أوعدنا به هؤلاء المشركين من إنزال العذاب فيهم عقاباً على كفرهم، أو توفّيناك قبل أن نريك ذلك **﴿فإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾** فما عليك يا محمد إلاّ تبليغ دعوة الإسلام وعلينا وحدنا حسابهم وجزاؤهم على كفرهم ومعاصيهم في الدنيا والآخرة في الوقت الذي تقتضيه حكمتنا. وفي قوله سبحانه:

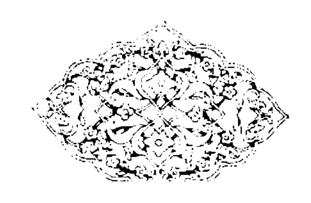
﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ إشارة واضحة بأن الله سيري رسوله محمداً بعض الذي أوعد المشركين به من الهزائم ونزول العذاب بهم وهو ما تحقق فعلاً في غزوة بدر وغيرها من الغزوات.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أعمي هؤلاء الكافرون عن التفكير والاعتبار؟ ألم ينظروا كيف أننا نأتي أرض الكفر فنفتحها للمسلمين باستيلاء المسلمين عليها شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار الإسلام ونصيب أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ والله قد حكم بالغلبة للمسلمين على أعدائهم ما داموا على طاعة الله لا يعقّب أحد غيره على حكمه بتغيير ولا نقض ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ والله سريع الانتقام ممن عصاه في الدنيا ومحاسبهم على أعمالهم في الآخرة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ المكر هو تدبير الشر خفية، أي قد مكر الكفار من قبل برسل الله كما مكر كفار مكة برسول الله ومن معه من المؤمنين ﴿فَلِلَّهِ المَكْرُ جَمِيعاً﴾ فالله سبحانه محيط بمكرهم فلا يغيب عن علمه شيء منه، وهو قادر على إحباطه، وعنده سبحانه جزاء مكرهم ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي يعلم ربك يا محمد ما يعمل هؤلاء الكفار من قومك، وما يسعون فيه من المكر بك، كما يعلم جميع أعمال الخلق لا يخفى عليه شيء منها ﴿وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ﴾ وسيعلم الكفار أن العاقبة الحميدة في دار الدنيا ودار الآخرة ستكون للمؤمنين. هذه الآية تبشر المؤمنين بالنصر على أعدائهم وهو ما تحقق فعلاً بعد سنوات قليلة من نزول هذه الآية، مما يعطينا الدليل القاطع على أن القرآن وحي إلّهي إذ لا يعلم الغيب إلاّ الله.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ ويقول الكفار من قومك يا محمد بأنك لست رسولاً من عند الله تكذيباً منهم لك وجحوداً لنبوتك رغم كل البراهين والحجج التي تشهد أنك رسول الله حقاً ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بيني وبَيْنَكُم﴾ قل يا

محمد لهؤلاء حسبي الله شاهداً لي على صدقي بأني رسول من عنده، وشاهداً عليكم أيها الكفار في ما تفترونه من البهتان ﴿وَمَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكِتَابِ﴾ كما يشهد بصدقي من أسلم من أهل الكتاب الذين عندهم علم بالتوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداريّ والنجاشي وأصحابه، لما رأوا في كتبهم من البشارات على مجيء نبي تنطبق صفاته على صفاتك يا محمد ولِما رأوا في القرآن الكريم من حقائق تشهد بأنه كتاب مُنْزَلٌ من عند الله.



تعريف بسورة إبراهيم

سورة إبراهيم هي سورة مكية أي نزلت بمكة، وسمّيت بهذا الاسم لاشتمالها على الدعوات الطيبات التي تضرَّع بها إبراهيم عليه السلام إلى ربه. وموضوع هذه السورة الأساسي هو العقيدة بفروعها التي تشمل: وحدانية الله، والإيمان بالرسل والبعث والجزاء على الأعمال في الآخرة.

تبدأ السورة ببيان وظيفة رسول الله محمد ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن ليخرج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان، ثم تذكر السورة نبذة عن رسول الله موسى عليه السلام مع قومه وكيف كان يدعوهم إلى شكر الله على نعمه ويحذرهم من الكفر، كما تذكر السورة نبذة عن أخبار رسل الله مع أقوامهم، وكيف تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بالنصر والاستخلاف في الأرض، والهزيمة والهلاك للكافرين.

وتتحدث السورة عن شدة عذاب الله للكافرين في الآخرة، وبطلان أعمالهم التي عملوها في دنياهم لأنهم لم يؤمنوا بالله، ولم يبتغوا بأعمالهم وجه الله والتقرب منه.

وفي هذه السورة تعداد لبعض نعم الله على الإنسان التي فيها استمرار حياتهم ومتطلبات معيشتهم مع تذكيرهم بأن نعم الله لا تحصى. كما تتضمن السورة مشهداً من مشاهد القيامة وما يكون فيه من محاورة بين الكفار وزعمائهم وبينهم وبين الشيطان الذي أغواهم.

وتذكر السورة الكلمة الطيبة وهي كلمة الإيمان (لا إله إلا الله) وتشبهها بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، والتي تؤتي ثمارها كل وقت بإذن ربها، كما تشبّه كلمة الكفر بالشجرة الخبيثة التي طعمها مر ولا تثبت في الأرض.

وأخيراً تنذر السورة الظالمين وتبين ما أعد الله لهم من عذاب أليم.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢)
ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ (٣) وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ
إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن
يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٤)﴾

شرح المفردات

الظلمات: الضلالات لأنها ظلمات معنوية.

إلى النور: إلى الهدى لأنه نور معنوي يهدي إلى الحق.

صراط: طريق.

الحميد: المستحق للحمد وإن لم يحمده الناس.

ويل: الويل بمعنى الهلاك.

يستحبون: يختارون ويؤثرون.

ويصدّون عن سبيل الله: يمنعون الناس عن دين الله.

ويبغونها عوجاً: يطلبون لسبيل الله العوج.

بلسان قومه: بلغة قومه.

القرآن هداية للناس من الضلال

تستهل هذه السورة آياتها بالتنويه بالقرآن وأثره في هداية البشر:

﴿الَر[١] كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّور﴾ أي هذا كتاب عظيم القدر وهو القرآن أنزله الله إليك يا محمد لِتُخرج الناس جميعاً من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية والحق. وقد جعل الله الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور عن طريق الاستعارة، كما عبّر الله عن الظلمات بصيغة الجمع لأن طرق الضلال كثيرة، وعبّر عن الإيمان والهدى بصيغة المفرد لأن طريق الهدى والإيمان طريق واحد ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي إنك يا محمد تُخرِجُ الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله ومشيئته ﴿إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى طريق الله المستقيم وهو الإسلام الذي شَرَعَهُ الله القوي الغالب لكل ما سواه، المستحق للحمد لذاته في كل أفعاله.

﴿اللَّهِ الَّذي لَهُ مَا في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ﴾ أي وإن الله سبحانه الذي تدعو الناسَ إليه يا محمد له ما في الكون خلقاً ومُلكاً وتصرّفاً لا يشاركه في ذلك أحد ﴿وَوَيْلٌ للكَافِرينَ مِنْ عَذَابٍ شَديدٍ﴾ وهلاك وعذاب شديد للكافرين يوم القيامة الذين لا يهتدون بما أنزله الله من القرآن على رسوله محمد ﷺ.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلى الآخِرَةِ﴾ وهؤلاء الكافرون هم الذين يختارون الحياة الدنيا ويؤثرون لذائذها الفانية وشهواتها المهلكة على الآخرة وما فيها من نعيم دائم وخيرات لا تزول ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويصرفون الناس عن دين الله الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ويرغبون أن تصير شريعة الله في نظر الناس معوجّة بإلقاء الشكوك والشبهات عليها والطعن فيها لإرضاء أهوائهم وشهواتهم ﴿أُولَئِكَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ أولئك الموصوفون بما ذُكر في ضلال بعيد عن الحق.

---

(١) الَر: راجع ما كتبناه في سورة الرعد بصدد معاني هذه الأحرف.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي وما أرسل الله من رسول إلى قومه إلاّ باللغة التي يتكلمون بها ليفهموا ما يبلّغهم به رسول الله من شريعة ربهم ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فيضل الله الظّالمين الخارجين عن طاعته، ويهدي الله سبحانه من اتّبع سبيل الرشاد ورجع إلى الله بالتوبة والطاعة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو الله سبحانه القوي الغالب الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ، الحكيم في أفعاله يهدي من هو مستحق للهداية من خلقه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ
رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ
وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

شرح المفردات

بأيام الله: أيام الله تشمل النّعم والنقم على خلقه.

صبّار: كثير الصبر على بلاء الله (من أبنية المبالغة).

شكور: كثير الشكر على نعماء الله (من أبنية المبالغة).

يسومونكم سوء العذاب: سام بمعنى ظلم مع الإذلال أي يكلفونكم التكاليف الشاقة مع الإذلال والتعذيب السيء.

يستحيون نساءكم: يتركون نساءكم أحياء للخدمة.

بلاء من ربكم: ابتلاء واختبار من ربكم.

تأذّن: آذن بمعنى أعلم، وصيغة «تفعّل» تفيد المبالغة في الإعلام.

موسى عليه السلام يعظ قومه

وبعد أن بيّن الله أنه أنزل القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، أتبع ذلك بذكر رسالة موسى إلى قومه وما وعظهم به من المواعظ لتكون دروساً وعِبَراً للقوم الذين أرسل الله إليهم محمداً ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي ولقد أرسلنا موسى بمعجزاتنا إلى قومه، ومعجزات موسى هي: العصا، واليد، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وانفجار العيون من الحجر، وإظلال الجبل، وإنزال المنّ والسلوى.

ومن المفسرين من يرى أن المقصود هنا بالآيات التوراة التي أعطاها الله لموسى عليه السلام، ولا مانع من أن تشمل الآيات: المعجزات وآيات التوراة فكلها كانت تأييداً لموسى عليه السلام ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ما ذكر من الآيات السابقة هدفها أن تُخرج يا موسى قومك بني إسرائيل من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ والتذكير إزالة نسيان الشيء، أي ذكّرهم تذكير عظة بأيّام الله الماضية. وأيام الله تشمل النّعم والنقم، أي ذكرهم بنعم الله عليهم حيث أنجاهم من آل فرعون، وذكّرهم بما حصل من انتقام الله لمن كذّب رسله وعاندهم مثل ما حلّ بقوم عاد وثمود وقوم لوط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن في تلك الأيام لدلائل وعبراً على وحدانية الله وقدرته وفضله ورحمته ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ لمن كان كثير الصبر على طاعة الله وعلى البلايا التي تصيبه ﴿شكور﴾ كثير الشكر على نِعَمِ اللّه. وتخصيص الصبور والشكور بالذكر لأن المتصف بهما هو المنتفع بالعظة والعبرة من ذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قال موسى لبني إسرائيل: اذكروا نعمة الله التي أسبغها عليكم ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي حين أنجاكم من حاشية فرعون وأتباعه،

وفرعون لقب لملك مصر في ذلك الوقت، فقد كانوا يُكلفون بني إسرائيل التكاليف الشاقة مع القهر والإذلال والتعذيب الشديدِ ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي ويذبحون أبناءكم الذكور ويستبقون إناثكم أحياء للخدمة ذليلات ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي ما ذُكِرَ ابتلاء واختبار عظيم من ربكم.

وهكذا يبتلي الله عباده: أحياناً بالخير ليرى هل يشكرون أم يخرجون عن طاعته، وقد يبتليهم بالمحن ليرى أيصبرون أم يكفرون، وفي كلتا الحالتين يثيب الله الشاكر على نِعَمِه، كما يثيب الصابر على مِحَنِه ويعاقب الكافر على كفره.

ومن جملة ما قال موسى لقومه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي واذكروا حين أعْلم ربكم إعلاماً بليغاً لا شبهة فيه: لئن شكرتم ربكم على ما أنعم عليكم من نعمة النجاة من اضطهاد فرعون وقمتم بطاعته في ما أمركم به وما نهاكم عنه فإنه سبحانه يزيدكم من نعمه وفضله ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ولئن كفرتم نعمة الله بإنكار نسبتها إليه سبحانه أو عدم استعمالها بطاعته أو قصّرتم بشكرها فترقّبوا عَذاب الله إن عذابه لشديد.

فهذه الآية تنص على أن شكر الله سبب لزيادة النِّعم كما أن كفرانها سبب لمزيد من النِّقَم، هذه حقيقة ذكرها الله لعباده ليروا من خلالها ما يؤدي إلى سعادتهم أو ما يؤول إلى شقائهم.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «وإنّ الرجُلَ ليُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ
﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ
فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن
تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

شرح المفردات

حميد: مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد.

نبأ: خبر.

بالبينات: بالمعجزات والحجج الواضحة على صدقهم.

فردوا أيديهم في أفواههم: عضوا على أصابعهم غيظاً من الرسل.

مريب: المتصف بقلق في النفس وعدم اطمئنانها إلى الأمر.

فاطر السماوات والأرض: خالقهما على غير مثال سابق.

تصدونا: تمنعونا.

بسلطان مبين: ببرهان وحجة بينة واضحة.

موسى يحذّر قومه من الكفر

ويتابع القرآن فيذكر تحذير موسى لقومه من الكفر:

﴿وَقَالَ مُوسَى إن تَكْفُروا أَنْتُم وَمَنْ في الأرْض جَميعاً﴾ أي إن تجحدوا نعم الله عليكم ولم تشكروها بعبادة الله وطاعته، إن فعلتم ذلك يا بني إسرائيل وفعل

ذلك معكم من في الأرض جميعاً فلن تضروا الله شيئاً، وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعم الله المعرض عن طاعته حيث يحرمه الله من مزيد نعمه ويتعرض لعذابه الشديد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾فإن الله غني عن شكركم وعبادتكم، مستحق للحمد لذاته فإن لم تشكروه يشكره غيركم من الملائكة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ الخطاب هنا من الله لأهل مكة، ويحتمل أن يكون من تمام كلام موسى لقومه كما يحكيه الله لنا، والمعنى: ألم يأتكم خبر الأمم الذين كانوا قبلكم وما حل بهم من الهلاك بسبب كفرهم كقوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم لا يَعْلَمُهُم إلاَّ اللَّهُ﴾ والذين جاءوا من بعدهم من الأقوام لا يعلم عددهم وأحوالهم إلاّ الله ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم رسل الله بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة من عند الله ﴿فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ في أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي فوضع الكفار أناملهم في أفواههم فعضوها غيظاً وبغضاً مما جاء به الرسل، وقد يكون المعنى: وضعوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم وقالوا لهم بغضب ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي إننا كفرنا بما جئتم به من المعجزات وبمن أرسلكم إلينا فاغربوا عن وجوهنا واتركونا وشأننا ﴿وَإِنَّا لَفي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإننا نشك ونرتاب في حقيقة ما تدعوننا إليه من أن للكون خالقاً واحداً لا شريك له.

ثم بيّن سبحانه جواب رسل الله على المكذبين من أقوامهم على سبيل الإنكار والتوبيخ لهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ أي أفي وجود الله شك وهو خالق السماوات والأرض ومبدعهما ومبدع ما يوجد فيهما من كائنات على أحكم نظام وعلى غير مثال سابق.

هذا برهان ودليل على وجود الله في غاية الإقناع والوضوح.

إن الفطرة الإنسانية السليمة منذ أقدم العصور إلى الآن أقرّت بوجود الله كما دلّ على ذلك تاريخ الأديان، وإن قانون السببية الذي يقول إن لكل صنعة صانعاً ينطبق على الكون، فهذه السماء وما تحتويه من بلايين النجوم المشعة، والكواكب

السيَّارة التي يحفظها قانون الجاذبية الذي وضعه الله في الكون ويحول دون أن تتصادم أو يرتطم بعضها بكوكبنا الأرضي فينسفه، وهذه الأرض التي نعيش عليها وما فيها من نبات وحيوان وسهول وجبال وبحار وأنهار كل ذلك يسير على سنن ونواميس في نهاية الحكمة، كل ذلك من البراهين القوية التي تدل على وجود قدرة إلّهية حكيمة وعلى بطلان مزاعم الماديين الذين يدّعون بأن الكون وُجِدَ اتفاقاً وصدفة.

وبعد أن بَيَّن رسل الله لأقوامهم أن وجود الله ليس مجال شك أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿يَدْعُوكُم لِيَغْفِرَ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي الله يدعوكم إلى الإيمان به وترك الذنوب والآثام ليغفر لكم بعض ذنوبكم التي وقعت منكم قبل الإيمان وهي التي تتعلق بحقوق الله وحده، أما حقوق العباد فإنها مبنية على ردّ الحقوق لأهلها ﴿وَيُؤَخِّرَكُم إلى أجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ويؤخر موتكم فتتمتعون بالحياة الدنيا إلى حين انتهاء آجالكم وهذه نعمة من الله عليكم فلم يستأصلكم بالعذاب والهلاك العاجل كما فعل بالأمم السابقة التي أصرت على الكفر والمعاصي وتكذيب رسل الله.

لم تؤثّر موعظة رسل الله في أقوامهم بل أجابوهم عناداً ومكابرة ﴿قَالُوا إنْ أنْتُم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا في الصورة والهيئة فلا فضل لكم علينا يؤهلكم لأن تكونوا رسل الله ﴿تُرِيدُون أن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤنَا﴾ فأنتم بصنيعكم هذا تريدون أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا ﴿فَأْتُونا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ فأتونا بحجة واضحة تؤيد صحة ما تدعوننا إليه حتى نترك عبادة آلهتنا التي وجدنا عليها آباءنا.

إن تلك الأمم كانت عبادتهم لآلهتهم من أصنام وغيرها تقوم على التقليد الأعمى للآباء بدون النظر والبحث والتماس الدليل. هكذا كانت حال الشعوب في الماضي البعيد، وها نحن اليوم في عصر العلم في مطلع القرن الواحد والعشرين لا نزال نرى الملايين من البشر تقوم عبادتهم على تقليد الآباء رغم ما في عبادتهم من الشرك بالله.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى
ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم
مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ
مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

شرح المفردات

يمنُّ عَلَى من يشاء من عباده: أي يمن بالنبوة على من يختار من عباده.

بسلطان: بحجة وبرهان يشهد على صدق نبوّتنا.

فليتوكل المؤمنون: فليعتمدوا على الله ويفوضوا أمورهم إليه.

وما لنا: وأيّ عذر لنا.

هدانا سبلنا: هدانا إلى طريق الله المستقيم الذي يجب سلوكه.

ملتنا: ديننا.

خاف وعيد: خاف ما أوعد الله به الكفار من العذاب.

تاييد الله لرسله وإهلاكه الظالمين

وبعد الرفض والتكذيب الذي لاقاه رسل الله من أقوامهم لأنهم بشر مثلهم، وكأن رسل الله في نظرهم لا يصح أن يكونوا من البشر وإنما يجب أن يكونوا من الملائكة، يحكي لنا القرآن ما كان جواب رسل الله على المعاندين لهم بالمنطق والأسلوب المهذب: **﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾** إن: حرف نفي بمعنى «ما» أي ما نحن إلا بشر مثلكم كما قلتم، ولكن هذه المماثلة بيننا وبينكم في

البشرية لا تمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوّة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولكن الله ينعم على من يشاء من عباده بنعمة النبوة ويصطفيه لرسالته، ويخصّه بمحض فضله. وتابع رسل الله قولهم:

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ اي وليس باستطاعتنا أن نأتيكم بحجة وبرهان على أننا رسل من عند الله غير ما أجراه الله على أيدينا من المعجزات إلاّ بإذن الله وتيسيره. وهذا ردٌّ من الرسل على ما حكاه الله سابقاً عن المكذبين لهم بقوله: ﴿فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾.

ثم أكد الرسل تمسّكهم بالمضيّ في دعوتهم بقولهم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ المؤمِنونَ﴾ والتوكل على الله معناه: الاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه مع العمل بالأسباب التي أمر الله بها للوصول إلى الأهداف المرتجاة.

كما حكى لنا القرآن ما قاله رسل الله لمن كذّبوهم: ﴿وَمَالَنَا ألاَّ نَتَوكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ وأيّ عُذر لنا في ترك التوكل على الله وحده ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وقد هدانا لأقْوَمِ الطرق وهو إخلاص العبادة له وحده والاعتماد عليه في كل شؤوننا ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ولنصبرن: اللام لام القسم، أي: والله لنصبرن على ما نلقى منكم من المكروه والاضطهاد بسبب دعوتنا إياكم إلى دين الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ المتوكِّلُون﴾ وعلى الله فليعتمد المتوكلون عليه ويفوّضوا أمورهم إليه فهو الذي ينصرهم وبيده وحده هزيمة أعدائهم.

فالتوكل على الله الذي ورد في موضعين سابقاً ليس فيه تكرار، فالأول جاء على لسان الرسل للمؤمنين عقب تعنت الكفار في طلب المعجزات. والثاني جاء عقب معاناة المؤمنين الأذى من الكفار.

لم يكتف الكفار بمعاندة رسل الله ورفضهم الانصياع إلى كلمة الحق بل أقسموا على أمرين أرادوا تنفيذهما:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ أي

وقال الذين كفروا لرسلهم على سبيل التهديد: والله لنخرجنكم[1] من أرضنا أو لتعودن في ديننا.

والتعبير بقوله سبحانه ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يفيد بظاهره أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها، وهذا محال فإن الأنبياء معصومون عن ارتكاب الكبائر فضلاً عن الشرك بالله قبل النبوة وبعدها. والخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون الذين كانوا قبل اتباع رسُل الله على ملّة قومهم ثم تركوها.

ثم تأتي بعد ذلك بشارة من الله لرسله بالنصر على أعدائهم: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي أخبر الله رسله عن طريق الوحي بأنه سيهلك الظالمين، ووصفهم بالظالمين لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وعبادة الأصنام، وظلموا الرسل والمؤمنين بالأذى والاضطهاد، وأكد الله سبحانه على ذلك بقوله ﴿لنهلكن﴾ بلام القسم ونون التوكيد ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي ولنسكننكم أيها المؤمنون أرض هؤلاء الكافرين بعد إهلاكهم عقوبة لهم في الدنيا على قولهم لرسل الله والمؤمنين ﴿لنخرجَنَّكم مِنْ أرضِنَا﴾ فانعكست الآية فكانوا هم المخرجين من أرضهم ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي إن ما قضى الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم هو حق لمن خاف الموقف الذي يقف به العباد بين يدي الله للحساب يوم القيامة، أو خاف قيام الله عليه بحفظ أعماله ومراقبته إياه ﴿وَخَافَ وعيدِ﴾ وخاف وعيد الله بالعذاب لمن عصاه.

فالله يخبرنا أن سنّته جرت بأن ينصر رسله ومن آمن معهم على الكافرين، كما أن في ذلك إنذاراً للمشركين العرب بسوء العاقبة وتثبيتاً لقلب رسول الله محمد وبشرى له بأن النصر سيؤول إليه وهو ما تحقق فعلاً.

---

(١) لنخرجنكم: اللام في لنخرجنكم هي الموطئة للقسم.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ
وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ
ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ
١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ
ٱلْبَعِيدُ ١٨ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٠﴾

شرح المفردات

استفتحوا: طلب الرسل النصر من الله.

خَابَ كل جبار: خسر وهلك كل متعاظم متكبر.

عنيد: معاند للحق مجانب له.

ماء صديد: ما يسيل من أجساد أهل النار، وأصل الصديد الماء الرقيق الذي يخرج من الجرح.

يتجرعه: يتكلف بلعه مرة بعد أخرى.

ولا يكاد يسيغه: ولا يقارب أن يبتلعه بسهولة لقبحه وكراهته. يقال ساغ الشراب في الحلق إذا سهل انحداره فيه.

عاصف: شديد الريح.

لا يقدرون مما كسبوا على شيء: لا يجد الكفار ثواباً لما عملوه في الدنيا.

وما ذلك على الله بعزيز: وليس ذلك بأمر صعب يتعذر على الله.

شدة عذاب الكافرين في الآخرة وبطلان اعمالهم

ويتابع القرآن فيخبرنا عما آلت إليه الأمم المكذبة لرسل الله من خسران في الدنيا وعذاب في الآخرة:

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي لجأ الرسل إلى ربهم وسألوه الفتح

والنصر على عدوهم فاستجاب الله لرسله ونصرهم، وخسر أعداؤهم وهلكوا جزاء تكبرهم وتعاظمهم عن عبادة الله وطاعته وانحرافهم عن الحق ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ الوراء: من الأضداد يقع على الخلف والأمام، أي ومن أمام كل جبار عنيد جهنم ليعذب بنارها ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ الصديد: هو القيح المختلط بالدم أو ما يسيل من أجساد أهل النار، هذا هو شراب الكفار في جهنم ﴿يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾ أي يتناول الكافر المشروب جُرعة جُرعة كُرهاً وذلك لشدة كراهته له ولا يقدر على ابتلاعه لحرارته ومرارته بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة ويشربه على هذه الحال تارة أخرى ويصل بعض الشراب إلى جوفه فيقطع أمعاءه ﴿وَيأتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ وتأتيه أسباب الموت من الشدائد وأنواع العذاب والآلام من كل موضع من أعضاء جسده وما هو بميّت فيستريح ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ومن أمامه عذاب شديد وهو الخلود في عذاب النار.

ثم يبين القرآن أن ما عمله الكافرون في دنياهم من أعمال سواء أكانت من أعمال الخير، أو ما قَدَّموه لآلهتهم من قرابين ونذور فإنها كلها لا تنفعهم يوم القيامة. وقد صوّر الله بطلانها، بهذا التشبيه البليغ:

﴿مَثَلُ الّذين كفروا بِرَبِّهِم أعْمَالُهُم كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال، فأعمالهم مَثَلُها كمثل الرماد وقد هبت عليه رياح عاصفة فبددته ولم تبق له أثراً. ووجه الشبه: الضياع والتفرق وعدم الانتفاع مما عملوا، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثوراً، فكذلك أعمال الكافرين في الآخرة تذهب سدى لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان بالله وإخلاص العبادة له ﴿لا يَقْدِرُون مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يقدرون يوم القيامة على الانتفاع بشيء مما فعلوه في الدنيا من أفعال البرّ والخير لأن كفرهم أحبط أعمالهم فذهبت سدى دون أن يستفيدوا من ثوابها شيئاً ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ أي ذلك الكفر الذي أضاع أعمالهم هو الضلال، البعيد عن طريق الحق، المخالف لمنهج الصواب.

ثم بيّن الله سبحانه بعض مظاهر قدرته التي لا يعجزها شيء:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ألم تر: الاستفهام للتقرير، أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله خلق السماوات والأرض بالحكمة البالغة المنزهة عن العبث وخلقها بالوجه الصحيح الذي تقتضيه إرادته؟ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إن يشأ يهلككم أيها الناس ويأتِ بخلق جديد يعترفون بوجوده ويقرون بوحدانيته ويطيعونه في أمره ونهيه ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وما إهلاككم والإتيان بغيركم أمر يصعب على الله أو يتعذر عليه لأنه سبحانه لا يعجزه شيء.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

شرح المفردات

وبرزوا لله جميعاً: ظهروا لله جميعاً للحساب بعد خروجهم أحياء من القبور.

كنا لكم تبعاً: كنا أتباعاً لكم تأمروننا فنطيعكم.

مغنون عنا: تدفعون عنا.

سواء: سيّان.
جزعنا: الجزع نقيض الصبر، كما أنه حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده.
محيص: مهرب وملجأ.
سلطان: تسلُّط أقهركم به على طاعتي.
بمصرخكم: بمغيثكم.
بما أشركتمون من قبل: بإشراككم إياي مع الله في العبادة من قبل، أي في الدنيا.

محاورة بين اهل الضلال وبين الشيطان

ولما كان الكفار يستترون عن العيون عند ارتكاب الفواحش في دنياهم، ويظنون أنهم بمنأى من أن يراهم ويحاسبهم أحد، بيّن الله فساد ظنهم بقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جميعاً﴾ أي وخرجتِ الخلائق كلها من قبورهم يوم القيامة إلى أرض المحشر، وظهروا لله تعالى ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم. وقد ذكر الله ﴿برزوا﴾ بصيغة الفعل الماضي وإن كان المعنى أنه سيحصل في المستقبل لأن كل ما أخبر الله تعالى به فهو متحقق الوقوع كائن لا محالة.

وفي هذا الموقف الرهيب حيث تبرز الخلائق لله الواحد القهار يأتي هذا الحوار بين الرؤساء الطغاة المستكبرين وبين أتباعهم الذين أطلق عليهم القرآن اسم «الضعفاء» لأنهم ضعاف الرأي، ضعاف التفكير، وضعاف الشخصية، وهم الكثرة الساحقة في كل أمة فيستعبدهم الرؤساء عن طريق المال والسلطة ويجعلونهم تبعاً لإرادتهم:

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي يقول الضعفاء وهم العوام والأتباع لسادتهم ورؤسائهم المستكبرين ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعاً﴾ أي إننا كنا أتباعكم في الدنيا نأتمر بأوامركم في تكذيب الرسل وفي كل ما تريدونه منا ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهل أنتم تدفعون عنا اليوم شيئاً من عذاب الله الذي حل بنا؟ ﴿قالوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أي وقال الرؤساء لأتباعهم: لو هدانا الله إلى

الإيمان لهديناكم لكننا ضللنا فأضللناكم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ أي سيّان علينا الجزع مما نحن فيه من العذاب والصبر عليه. والجزع: حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ ليس لنا مهرب ولا خلاص من عذاب الله.

ثم يحكي الله لنا ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي وقال الشيطان لأتباعه الذين أطاعوه بعد أن قضى الله بين عباده فأُدخل المؤمنون الجنة وأُدخل الكافرون النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُم وَعْدَ الْحَقِّ﴾ إن الله وعدكم على ألسنة رسله أن يبعثكم أحياء يوم القيامة ويحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُم﴾ ووعدتكم عن طريق الكذب والبهتان بأنه لا بعث ولا جزاء فأخلفتكم وعدي ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وما كان لي عليكم من قهر وتسلط لأجبركم على اتّباعي ﴿إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُم لِي﴾ أي ما كان مني إلا مجرد دعوة لكم إلى الغواية والضلال فسارعتم إلى إجابتي تلبية لشهواتكم ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُم﴾ فلا تلوموني بوسوستي لكم ودعوتكم إلى الضلال ولوموا أنفسكم باستجابتكم لي وترككم اتّباع الرسل ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ فما أنا اليوم بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، ولستم بمغيثيّ مما أنا فيه من عذاب الإضلال لكم ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي إني تبرأت من إشراككم إيَّاي مع الله في الدنيا حيث أطعتموني في الشر كما يُطاع الله في الخير كأني معبود معه ﴿إِنَّ الظَّالمينَ لهم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهنا اعتراف من الشيطان على نفسه وعلى أتباعه بالظلم بسبب ما هم عليه من الضلال وأنهم مستحقون بسبب ذلك العذاب الأليم في الآخرة.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا
وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ
خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾
يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى
ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

شرح المفردات

ألم تر: أي ألم تعلم؟ والاستفهام هنا للتقرير.
ضرب الله مثلاً: أي أعطى الله مثلاً ووضعه في المكان اللائق به.
كلمة طيبة: المراد بها هنا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).
تؤتي أُكُلها كُلّ حين: تعطي ثمرها الذي يؤكل في كل وقت.
يتذكرون: يعتبرون ويتعظون.
اجتثّت: قُطعت واستؤصلت من جذورها.
من قرار: من ثبات في الأرض.

مزايا الإيمان وثمراته

وبعد أن بيّن الله سوء عاقبة الكافرين ذكر ما أعد للمؤمنين من ثواب جزيل: **﴿وَأُدْخِلَ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** أي وأدخل الله تعالى في هذا اليوم وهو يوم القيامة الذين صدّقوا بوحدانيته وبكل ما يجب الإيمان به وعملوا بطاعته وانتهوا عما نهاهم عنه **﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ﴾** أي أدخلهم الله إلى بساتين تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة **﴿خَالِدينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** أي ماكثين فيها أبداً لا

يخرجون منها ولا يخرجهم منها أحد، بأمر الله وفضله وهدايته لهم. وجاء التعبير بـ (أدخل)بصيغة الماضي لتحقق الوقوع وتعجيل البشارة لهم ﴿تَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلامٌ﴾ أي تحيتهم في الجنات سلام لهم من الله ومن الملائكة ومن بعضهم إلى بعض.

ويتابع القرآن فيمثّل كلمة الإيمان بهذا المثال البليغ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أي ألم تعلم أيها الرسول أو أيها المخاطب كيف بيّن الله مثلاً تُعرف به منزلة التوحيد في الإسلام وهذا المثل هو ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ والكلمة الطيّبة كما جاء تفسيرها هي شهادة المؤمن أن لا إله إلا الله التي هي الأساس الأول للإسلام وما يصدر عن المؤمن من أعمال صالحة وثناء على الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي ومثال كلمة التوحيد كشجرة طيبة المنفعة وهي شجرة النخلة كما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهذه النخلة أصلها ضارب عروقه في الأرض متمكن فيها وفرعها ـ أي أعلاها ورأسها ـ مرتفع إلى السماء. ومتى كانت الشجرة مرتفعة كانت ثمراتها نقية بعيدة عن التلوث. ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته ثابت في قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة في الأرض، والمراد بـ «فرعها في السماء» أي أن ما يصدر عن المؤمن من كلمة التوحيد وأعمال صالحة وأفعال زكية تُرفع إلى الله كما جاء في القرآن ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر].

وصعود الكلم الطيّب إلى الله قبوله والرضا به من الله والإثابة عليه، وهكذا شبّه الله ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروع النخلة ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي يؤكل ثمرها في كل وقت، فثمر النخيل يؤكل في كل وقت صيفاً وشتاء فيؤكل منه البلح والبسر والرطب والتمر مع ما في ذلك من منافع جمة، وكذلك المؤمن

كله خير وبركة لا يصدر عنه في كل وقت إلاّ كل نفع وصلاح لنفسه ولأمّته وعشيرته ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهم يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويبيّن الله الأمثال للناس فيشبّه المعاني السامية بالصور المحسوسات ليتعظوا ويعتبروا.

وبعد أن أعطى الله مثلاً على كلمة الإيمان أتبع ذلك بذكر مثالٍ لكلمة الكفر:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خبيثَةٍ﴾ والكلمة الخبيثة المراد بها هنا كلمة الكفر والشرك بالله وما يستتبع ذلك من آثام وعصيان لله ﴿كَشَجَرةٍ خَبيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة المشهورة بمرارتها أو هي كل شجرة لا يطيب لها ثمر ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾ استؤصلت من فوق الأرض بسهولة لكون عروقها قريبة منها ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي ليس لهذه الشجرة الخبيثة من ثبات في الأرض ولا استقرار.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِين آمنوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يثبت الله المؤمنين بوحدانيته وبرسوله محمد على دينهم في الحياة الدنيا فلا تخالط عقيدتهم الشكوك بدينهم، كما يثبتهم الله على الخير والعمل الصالح ﴿وَفي الآخِرَةِ﴾ أما تثبيتهم في الآخرة فذلك يكون بعد الموت فلا يتلعثمون إذا سألتهم الملائكة في قبورهم عن معتقدهم بل يُعلنون كلمة التوحيد. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[1] فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الّذين آمنوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي يصرفهم الله عن الهدى ويتخلى عنهم لإصرارهم على العناد والكفر ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل الله ما يريد من تثبيت أهل الإيمان وإثابتهم على إيمانهم وطاعتهم له ويخذل أهل الكفر ويعاقبهم على ظلمهم.

---

(١) رواه الشيخان.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ
ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ
أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾
قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

شرح المفردات

دار البوار: دار الهلاك وهي جهنم.

يصلونها: يدخلونها ويقاسون حرّها.

بئس القرار: بئس المستقر.

أنداداً: جمع ندّ وهو الشريك والشبيه. والمقصود بالأنداد الأصنام التي يعبدونها.

مصيركم: مرجعكم ومآلكم.

لا خلال: جميع خليل، أي لا صداقة تنفع يوم القيامة.

مآل الكفر بنعم الله

ويتابع القرآن فيذكر على سبيل التعجب حال قوم بدّلوا شكر نعمة الله عليهم كفراً: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِين بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً﴾** أي ألم تنظر يا محمد أو أيها المخاطب نظرة تعجب واستنكار إلى أهل مكة الذين أسكنهم الله حرمه الآمن[1] وجعل عيشهم في سعة، وبعث فيهم محمداً رسولاً من عنده، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، فبدلاً من أن يشكروا الله على نِعمه وذلك بعبادته، والتصديق برسوله محمد أشركوا مع الله آلهة أخرى وآذوا رسوله، أو بدّلوا شكر نعمة الله عليهم كفراً بها

(١) حرمه الآمن: الحرم يطلق على مكة وما حولها، ووجه تسميتها بالحرم هو أن الله حرّم فيها أموراً ليست بمحرّمة على غيرها من البلدان كالصيد وقطع النبات والغارات والقتال إلا في حالات خاصة كالدفاع عن النفس والقصاص.

بإهمالها وعصيان الله، فسلبهم الله إياها وحرمهم منها، فأصابهم القحط، وعوقبوا بالقتل والأسر يوم معركة بدر ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾(١) أي وأنزل قادة قريش قومهم الذين شايعوهم في الكفر دار الهلاك ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي إن دار الهلاك هي جهنم التي يدخلونها ويقاسون حرّها وبئس المقر جهنم.

والنص القرآني ليس خاصًا بكفار مكة، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل قوم يبدلون نعمة الله عليهم كفراً بها يستحقون الهلاك.

كما أن هذا النص ينطبق في جملة ما ينطبق على الفئات المستبدّة التي تمارس طغياناً على من بيدها أمرهم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً﴾ أي ومن العجب أن الكفار جعلوا لله الواحد أمثالاً وأشباهاً في التسمية حيث سموا الأصنام آلهة وعبدوها من دون الله ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي لإضلال قومهم عن سبيل الله وهو توحيده والتوجه إليه وحده بالعبادة والدعاء ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي قل لهم يا محمد استمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات واتّبَاعِ الأهواء فإنّ مرجعكم ومآلكم إلى نار جهنم، وهذا تهديد ووعيد لهم على سلوكهم الضال.

وبعد هذا التهديد والوعيد للكافرين يأمر الله رسوله بأن يوصي المؤمنين بالصلاة والزكاة: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أي قل يا محمد لعبادي الذين استجابوا لدعوة الإيمان فآمنوا بربهم، وفي إضافة العباد إلى الله (عبادي) تشريف لهم وتنويه بهم، قل لهم: أن يداوموا على الصلاة وأدائها بأركانها وشروطها في أوقاتها ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ وقل لهم يا محمد أيضاً أن ينفقوا بعض ما رزقهم الله من الأموال على المحتاجين والمعوزين سواء في السر أو في العلانية. والتعبير بقوله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ يشعرهم بأن المال الذي في أيديهم ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر بأن

---

(١) البوار: أصل البوار فرط الكساد لأنه يفضي إلى الفساد المؤدي إلى الهلاك.

ينفقوا جزءاً منها في وجوه الخير. وقدّم الله إنفاق السرّ على العلانية للتنبيه على أنه أوْلى من العلانية لبعده عن الرياء ولأنه أستر للمتصدّق عليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلالٌ﴾ أي فلينفقوا قبل أن يفاجئهم يوم القيامة ذلك اليوم الذي لا يتسنى فيه لمقصّر في طاعة ربه أن يتلافى تقصيره هذا أو يفتدي نفسه المقصرة بما يكسبه من بيع أو شراء، فإنه لا بيع في هذا اليوم ولا شراء. وقوله تعالى: ﴿ولا خِلال﴾ أي لا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه إذا لم تكن أعماله شافعة له.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى
ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ
مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

شرح المفردات

وأنزل من السماء ماء: وأنزل الله من السماء مطراً، وكل ما علا الإنسان فهو سماء.

رزقاً لكم: هو كل ما ينتفع به الإنسان مما يطعم أو يشرب.

سخّر: ذلّل.

الفلك: السفن.

دائبين: دائمين.

لا تحصوها: لا تستطيعون حصرها وعدّها.

فضل الله على الناس

بعد أن ذكر الله أحوال الكافرين ومصيرهم في الآخرة شرع يبين فضله على الناس بما سخّر لهم في حياتهم الدنيا ما ينتفعون به مع بيان قدرته الشاملة:

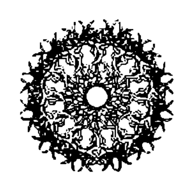
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأرضَ﴾ فالله وحده هو الذي خلق السماوات وأبدع صنعها وأوجد فيها البلايين من النجوم المشعّة كما خلق الله الكواكب ومن ضمنها الأرض التي نعيش عليها وما تحتويه من سهول وجبال وبحار وأنهر وصنوف النبات ومخلوقات حية. هذه السماوات والأرض لا يمكن أن تنشأ صدفة بل هي تشهد بما فيها من عظمة وإبداع على وجود خالق عظيم حكيم هو الله سبحانه ﴿وَأَنْزَلَ مِن السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد بالسماء هنا السحاب وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء، أي أنزل الله من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُم﴾ أي فأخرج بهذا المطر أنواعاً شتى من النبات من خضار وبقول وأشجار تعطي ثماراً مختلفة الطعوم والأحجام والمنافع لتكون رزقاً وغذاء للناس.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِي في البَحْرِ بأمْرِهِ﴾ أي ذلل الله لكم أيضاً السفن لتجري في البحر بمشيئته بأن جعلكم قادرين على صنع السفن بما هيأ لكم من الأشجار الصلبة والمعادن المختلفة، وبأن جعل الماء بهذه الكثافة المعهودة بحيث تطفو عليه السفن، وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك للوصول إلى ما تريد الانتفاع به فهو مسخّر لك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهَارَ﴾ أي ذلّلها لكم لتشربوا منها ولتسقوا زروعكم ودوابّكم، وقد ذكر الأنهار عقب البحر لأن البحر لا ينتفع به في الشرب ولا في الريّ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ وذلّل الله الشمس والقمر يجريان دائماً في مدارهما في ما يعود بالخير والمنفعة على مصالح العباد وهما لا يفتران في سيرهما ولا في تأثيرهما النافع على الكائنات الحية وعالم النبات، ولولا الشمس لانعدمت الحياة كليًّا على وجه الأرض ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَيْلَ والنَّهارَ﴾ وجعل الله

الليل والنهار يتعاقبان، ففي الليل يستريح الناس من عناء العمل ويستردّون قوّتهم ونشاطهم، وفي النهار يسعون لتحصيل أرزاقهم.

﴿وَآتَاكُم مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم الله ما تحتاجون إليه في جميع شؤونكم من كل ما هو جدير بسؤالكم سواء سألتموه أم لم تسألوه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾وإن أردتم تعداد النعم التي أعطاها الله لكم فلن تستطيعوا إحصاءها لكثرتها فهي لا يلمّ بها الحصر ولا يحيط بها العدّ، وفي كل فترة من الزمن يستكشف العلماء بعض الأسرار والحكم التي أودعها الله في هذا الكون لمنفعة الإنسان بالذات ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ هاتان الصفتان هما من صيغ المبالغة أي أن الإنسان كثير الظلم وشديد الكفر لِنعم الله عليه. بهاتين الكلمتين يصف الله طبيعة الإنسان، فالظلم صفة متأصلة فيه، فكل ما ترى في الكون من مآس سببها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، كما أن الإنسان في أكثر حالاته شديد الكفر لنعم الله عليه فبدلاً من أن تكون هذه النعم سبباً لطاعة الله والثناء عليه نراه يتخذ من هذه النعم سبيلاً لارتكاب الفواحش والمعاصي.



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن
نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ
مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن
ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن
شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي
مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

شرح المفردات

البلد: المراد به هنا مكة.

اجنبني: أبعدني واعصمني.

المحرّم: الذي حرِّمت التعرّض له بسوء.

تهوي: تسرع في ميل وحنين.

ما نخفي: ما نضمر في نفوسنا ونستر.

وَهَبَ لي على الكِبَر: رزقني ولداً مع تقدمي في السن.

ومن ذريتي: واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة.

يوم يقوم الحساب: يوم يقوم الناس أحياء للحساب يوم القيامة.

من تضرعات إبراهيم لربه وإخلاصه له

وبعد أن بيَّن القرآن الدلائل والبراهين على وحدانية الله وأن لا معبود سواه،

حكى عن إبراهيم عليه السلام تشدده في إنكار عبادة الأصنام وذلك من خلال هذا الدعاء بعد أن أسكن ولده إسماعيل وأمه هاجر بوادي مكة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ أي واذكر يا محمد وقت أن دعا إبراهيم ربه فقال: يا رب اجعل هذا البلد ـ أي مكة ـ ذا أمن حتى يأمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. والأمن أعظم النعم بعد الحياة ويليه سائر أنواع النعم والخيرات، ولا يتم شيء من مصالح الدين وأمور الدنيا إلا به. فاستجاب الله دعاء إبراهيم فكان الخائف إذا التجأ إلى مكة أمن من الخوف، وكان بعض الناس مع شدة العداوة فيما بينهم يتلاقون فلا يخاف بعضهم بعضاً ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أي أبعدني يا رب وأبعد ذريتي عن عبادة الأصنام، والمراد ثبتنا على ما نحن عليه من عبادتك وحدك، وإنما سأل إبراهيم ربه ذلك مع أن الأنبياء معصومون عن عبادة الأصنام للإيذان بأن عصمة الأنبياء هي بفضل الله وتوفيقه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ اضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ إنهن: أي الأصنام: وإنما أسند إبراهيم الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل ولا تتكلم لأنها سبب في ضلال الناس فكأنها أضلّتهم. وهذا شبيه بما يقال: فتنتهم الدنيا وغرتهم، وإنما هم فتنوا بها واغتروا بها ﴿فَمَن تَبِعَني فَإِنَّهُ مِنّي وَمَنْ عَصَاني فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فمن تبعني في عبادة الله والخضوع له والاستسلام لأوامره فإنه متصل بي ديناً، ومن عصاني بإعراضه عن طاعة الله وإصراره على المعاصي فإنك يا رب أهل للغفران الشامل والرحمة الواسعة. والآية لا يفهم منها الدعاء بالمغفرة لمن عصى الله وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم. ودعاء إبراهيم نستشف منه رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع في العذاب الأليم. وهذا شبيه بما حكاه الله عن عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

وقبل أن نتابع تفسير الآيات التالية نمهد لها بذكر بعض الأحداث التي تلقي الضوء عليها:

من المعروف أن إبراهيم ترك بلدة حران في العراق حيث نشأ ونزل بأرض الشام ومعه زوجته ساره، وبسبب ضائقة اقتصادية حلت به سافر إلى مصر التي لبث فيها فترة قصيرة من الزمن ثم عاد إلى فلسطين ومعه زوجته (ساره) وجارية لها تدعى (هاجر) وهبها ملك مصر لها، وهي بدورها وهبتها لإبراهيم عليه السلام حيث أنجب منها ولداً سمّاه اسماعيل. عندئذ دبت الغيرة في نفس سارة لأنها لم تكن قد أنجبت ولداً حتى ذلك الوقت، فطلبت من إبراهيم إقصاءهما عن وجهها، ولأمر يريده الله أوحى إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة وقد كان رضيعاً، ثم أمره الله بالتوقف في أرض خلاء بعيدة عن العمران في المكان الذي سيبنى فيه البيت الحرام بوحي من ربه. أنزل إبراهيم هاجر وطفلها اسماعيل في هذا المكان المقفر ووضع عندها وعاء فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل راجعاً فتبعته أم اسماعيل وقالت له: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي المقفر الذي لا أنيس فيه ولا شيء؟ ولمّا لم يجبها قالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا. ثم أنبع الله ماء زمزم لإسماعيل وأمه بعد أن نفد الماء منهما وكاد العطش يفتك بهما.

وانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان بمكان بحيث لا تراه زوجته استقبل بوجهه المكان الذي سيُبنى فيه البيت الحرام ثم دعا بهذه الدعوات:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيرِ ذِي زَرعٍ عِندَ بَيتِكَ المُحَرَّمِ﴾ أي يا ربنا إني أسكنت بعض ذريتي بوادٍ لا ماء فيه ولا زرع عند بيتك المحرّم الذي قد جرى في سابق علمك أنه يبنى هنا، والمحرّم هو الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره من القتال والصيد، أو أنه البلد المحرّم أن تنتهك حرمته ويُستخفّ به، وقد أقدمْت على ذلك يا رب استجابةً لأمرك، وثقةً مني بأنك سترعى ذريتي وتحوطها بعنايتك ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي يا ربنا ما أسكنت بعض ذريتي في هذا الوادي إلاّ لإقامة الصلاة عنده ليعمروه بذكرك وعبادتك، والتعبير بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿لِيُقِيموا الصَّلاة﴾ مع أنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل وأمه هاجر فيه إيذان

من الله بأنه سيكون لإسماعيل ذرية كثيرة ﴿فَاجعَل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاس تَهْوي إِلَيْهِمْ﴾ فاجعل قلوب بعض الناس تحنّ إليهم وتسرع إليهم شوقاً وودًّا. ولم يقل القرآن فاجعل الناس، وإنما قال: فاجعل أفئدة من الناس للإشارة إلى أن سعي الناس إلى بيت الله الحرام يكون منبعثاً عن شوق ومحبة حتى لكأن الذي يقصد بيت الله الحرام هو القلب والروح وليس الجسد وحده ﴿وَٱرْزُقْهُم مِنَ الثَّمَراتِ﴾ أي وارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك من أنواع الثمار ﴿لَعَلَّهُم يَشْكُرونَ﴾ رجاء أن يشكروك على نعمك بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية لك.

وأول آثار دعوة إبراهيم أن الله تعالى أنبع ماء زمزم لهما، ثم مرت رفقة من جرهم وهم قبيلة من اليمن قريبة منهم فرأوا الطير تحوم فوقهم، فقالوا: لا طير إلاّ حيث يوجد الماء، ثم تراءى لهم اسماعيل وأمه وعندهم عين ماء فتقدموا من هاجر وقالوا لها: أشركينا في مائك نشركك في ألباننا ففعلت، فحطوا الرحال بالقرب منها. وشب إسماعيل وتزوج منهم. كما استجاب الله دعاء إبراهيم حيث رزق ذريته من صنوف الفاكهة المختلفة في القرى القريبة من مكة كالطائف، أو ما يجلب لهم من الأقطار البعيدة من مختلف الثمرات على يد ملايين الحجاج وصدق الله إذ قال: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص].

كما نستشف من الآية أن الذين يقيمون الصلاة بخشوع تقرّباً إلى الله يجزيهم الله بأن تحن إليهم قلوب الناس ويدرّ عليهم الرزق.

ويتابع إبراهيم دعاءه ربه ﴿رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفي وَمَا نُعلِنُ﴾ أي يا ربنا إنك تعلم كل أحوالنا فتعلم ما نخفيه وما نعلنه، وتعلم ما أخفيه من الحزن بسبب فراقي اسماعيل وأمه ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيءٍ في الأرضِ وَلا في السَّماءِ﴾ ولا يخفى على الله شيء في الكون لأنه خالقه ومدبره. هذه الكلمات صدرت من قلب إبراهيم المتفطر حزناً على فراق أهله، ولعلّه كان يكفكف دمعه عندما ناجى بها

ربه، فما أحرانا عندما تداهمنا المصائب أن نردد هذه الكلمات مناجين بها ربنا فهو يعلم ما نحن عليه من شدة وضر، وهو القادر على إغاثتنا مما نحن فيه من بلاء، وعلى تخفيف أحزاننا ومواساتنا بنور منه يقذفه في قلوبنا.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي وَهَبَ لي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ﴾ أي الثناء مني على الله والشكر له حيث منحني مع كبر سني اسماعيل وإسحق. والآية لم تذكر عمره حين رزق بولديه، ولكن كتب السيرة تذكر أنه ولد لإبراهيم اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحٰق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ سميع: من أبنية المبالغة، أي إن ربي كثير إجابة الدعاء لمن دعاه، والآية عبرت عن إجابة الدعاء بسماع الله إياه.

ويتابع إبراهيم دعاءه: ﴿رَبِّ اجْعَلْني مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِنْ ذُرِّيَّتي﴾ أي وفقني يا رب إلى دوام المحافظة على إقامة الصلاة والخشوع فيها والقيام بأركانها، واجعل من ذريتي من يقيمها وأراد بهم المؤمنين من ذريته لعلمه من وحي الله تعالى أن من ذريته من لا يقيم الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّل دُعَاءِ﴾ أي ربَّنا تقبَّل دعائي بتحقيق ما طلبته منك، وقيل المراد بالدعاء هنا: العبادة، وإنما يجوز أن يسمى الدعاء عبادة لأن الدعاء جزء من كل عبادة.

﴿رَبَّنَا اغفِر لي وَلِوَالِدَيَّ﴾ دعا إبراهيم ربه أن يغفر له ذنبه مع أنه معصوم لم يرتكب ذنباً ليكون قوله هذا تعليماً لأمته أن يطلبوا الغفران من ربهم على ما ارتكبوه من خطايا أو أن إبراهيم طلب الغفران من ربه على ما صدر عنه من هفوات، كما طلب الغفران لوالديه، وذلك قبل أن يثبت له أن أباه عدو لله، ولا يبعد أن تكون أمه مؤمنة لأن إبراهيم تبرأ من أبيه دون أمه عندما تبين له أن أباه عدو لله، كما ذكر القرآن ذلك في موضع آخر ﴿وَلِلْمؤمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾ كما طلب إبراهيم من ربه أن يغفر للمؤمنين جميعاً حينما يقومون من قبورهم أحياء للحساب والجزاء على أعمالهم يوم القيامة، وهذه شفاعة من إبراهيم للمؤمنين والله سبحانه لا يردّ دعاء خليله إبراهيم عليه السلام.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ
فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

شرح المفردات

تشخص فيه الأبصار: تكون فيه الأبصار مفتوحة لا تَطْرِف من الهول.

مهطعين: مسرعين إلى الداعي ومقبلين عليه.

مقنعي رؤوسهم: رافعي رؤوسهم.

طرْفهم: بصرهم.

أفئدتهم هواء: قلوبهم خالية لا تعي شيئاً لفرط الحيرة والفزع.

وأنذر الناس: وخوّف الناس يا محمد.

أخّرنا إلى أجل قريب: أجِّل عقابنا وأعِدنا إلى الدنيا إلى حدٍّ من الزمان قريب.

ما لكم من زوال: ما لكم من انتقال من الدنيا للآخرة للجزاء.

ضربنا لكم الأمثال: بيّنا لكم صفة وأحوال من كذبوا الرسل قبلكم.

مكروا: المكر هو تدبير الشر للغير خفية، ومكْر الكفار بالرسل هو القدح في دعوتهم وتدبير المعوقات عن الاستجابة لهم ومحاولة الفتك بهم.

وعند الله مكرهم: وعند الله جزاء مكرهم وعقابهم.

الظلم وعواقبه الوخيمة

ويتابع القرآن فيبين مصير الظالمين وما ينتظرهم من عذاب في الآخرة:

﴿وَلا تَحسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ولا تظنن يا محمد أن الله يسهو ويغفل عما يعمل الظالمون فهو سبحانه لا يخفى عليه أمرهم ولن يتركهم بلا عقوبة ﴿إِنَّمَا يُؤخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ إنما يؤخر الله عقابهم وإنزال العذاب بهم إلى يوم القيامة حيث تكون أعينهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من شدة الخوف والفزع.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي وهو الملك إسرافيل وقيل جبريل الذي يدعوهم إلى الاجتماع في المحشر[1]، وهذا ما ورد في القرآن أيضاً ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر] . ﴿مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر من غير التفات إلى شيء ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِم طَرْفُهُم﴾ أي لا ينطبق لهم جفن لعظم الهول وهو تأكيد لشخوص البصر ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ وقلوبهم خاوية ليس فيها فهم ولا عقل لفرط الحيرة والدهشة كأنها نفس الهواء الذي ليس فيه شيء.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ﴾ وخوّف يا محمد الناس من أهوال يوم القيامة، ومن قبل أن يحل عذاب الله بالظالمين ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فيقول الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله والمعاصي: يا ربنا أعدنا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى وأخّر حسابنا إلى وقت قريب ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ أي إذا أعدتنا إلى الدنيا فإنّا نستجيب لدعوتك التي أمرتنا بها ونُخلص العبادة لك ونتبع رسلك في كل ما أمرونا به، وجيء بلفظ الرسل بصيغة الجمع لأن الحديث هنا عن يوم القيامة حيث يجمع الله الرسل مع أممهم، وحيث إن الرسل جميعاً

(١) المحشر: هو المكان الذي يُحشر الناس فيه يوم القيامة.

جاءوا برسالة واحدة وهي إخلاص العبادة لله والدعوة إلى مكارم الأخلاق ﴿أَوَ لَمْ تَكُونوا أَقْسَمْتُم مِنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِنْ زَوَالٍ﴾ أي ألم تكونوا في الدنيا تحلفون أنكم لا تزولون ولا تتحولون من قبوركم إلى دار أخرى، وأنكم تموتون ولا تبعثون، وهذا ما حكاه الله عنهم في موضع آخر من القرآن: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل] ﴿وَسَكَنتُم في مَسَاكِنِ الَّذين ظَلَمُوا أَنفُسَهُم﴾ والمراد بالسكنى الحلول فترة قصيرة في أماكن الظالمين، فقد كان كفار قريش يمرون بديار قوم ثمود في رحلتهم إلى الشام وكانوا يحطّون رحالهم هناك، كما كانوا يمرّون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن ويحطّون رحالهم أيضاً هناك للاستراحة من وعثاء السفر فهم لم يسكنوا تلك الأماكن وإنما مروا بها ورأوا ما حل بأهلها ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِم﴾ أي وشاهدتم الآثار الباقية من الدمار الذي حل بهم كقوم ثمود وعاد ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ وبيّنا لكم في القرآن صفات ما فعلوا وما حلّ بهم والتي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لتكون لكم فيها عظة وعبرة.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم﴾ والمكر هو تدبير الشر خفية للغير مع الاحتيال لإيقاع الأذى به. فهؤلاء الكفار مكروا برسل الله وذلك بالطعن في ما جاءوا به من عند الله وتدبير المعوقات في وجههم وإثارة الشبهات حول دعوتهم لصرف الناس عن الاستجابة لهم ومحاولة الفتك بهم، وجاوزوا بمكرهم كل حد سعياً في إبطال الحق ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي وعند الله علم مكرهم، أو عند الله جزاء مكرهم ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ﴾ أي وإن كان مكرهم في الشدة بحيث يزيل الجبال فإن الله ينصر دينه ويبطل مكرهم. وفسرت (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَان مَكْرُهُمْ﴾ بمعنى (ما) النافية. أي وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، والجبال المراد بها شريعة الإسلام فهي راسخة وثابتة ثبوت الجبال الراسيات لأن الله وعد رسوله محمداً بإظهار دينه على كل الأديان.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ
﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ
﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم
مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟
بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

شرح المفردات

وبرزوا لله: خرجوا من قبورهم أحياء ليحاسبهم الله على أعمالهم.

مقرّنين: شُدَّ بعضهم إلى بعض.

الأصفاد: القيود أو الأغلال، والقيد هو الذي يوضع في الرِّجل، والغُل الذي تضم به اليد والرجل إلى العنق.

سرابيلهم: قمصانهم أو ثيابهم.

قطران: سائل كريه الرائحة وهو عصارة شجر الأرز تطبخ وتدهن بها الإبل إذا جربت وهو شديد الاشتعال.

تغشى وجوههم النار: تعلو النار وجوههم وتحيط بها.

أولو الألباب: أصحاب العقول السليمة.

بيان مصير المجرمين في الآخرة

ويختم الله هذه السورة بهذه الآيات التي تبشر رسوله محمداً بالنصر على أعدائه كما تبين مصير المجرمين في الآخرة وما أعد الله لهم من عذاب أليم:

﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ فلا تحسبنّ يا محمد أن الله سيخلف ما وعد به رسله من النصر على أعدائهم، فدم على ما أنت عليه من الثقة واليقين بإنجاز الله وعده ﴿إِنَّ اللَّه عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ إن الله هو القويّ الغالب لأعدائه فينتقم لرسله من أعدائهم الذين يسيئون إليهم.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ والسَّمْواتُ﴾ أي أن الله ينتقم من الظالمين بتعذيبهم يوم تبدل الأرض يوم القيامة فتصبح أرضاً غير التي يعرفها البشر، كما تُبدّل السماوات فتصبح على غير الحالة التي كانت عليها، وفي غمرة هذا الانقلاب العجيب في الكون ﴿وَبَرَزُوا لِلّهِ الوَاحِدِ القَهّارِ﴾ أي خرج الخلائق من قبورهم أحياء ليجازوا على أعمالهم، سواء كانت ظاهرة، أو خفيّة وهي تلك التي عملوها سرًّا وظنوا أنها لا يعلمها أحد. وعبّر القرآن عن البروز بصيغة الماضي لتحقق وقوع ذلك، وفي وصف الله بالوحدانية والقهر إشعار بأن لا مغيث لأحد سوى الله.

﴿وَتَرى المجْرِمينَ يَوْمئِذٍ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفَادِ﴾ أي وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مشدودين بعضهم إلى بعض بالقيود والأغلال وهذا مشهد مذلّ مهين لهم، يضاف إلى ذلك أنّ ﴿سَرَابِيلُهُم مِنْ قَطِرَانٍ﴾ أي قمصانهم من قطران وهو سائل أسود منتن الرائحة يساعد على سرعة اشتعال النار في أجسامهم ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ وتعلو وجوههم النار وتحيط بها كما تحيط بأجسامهم، وفي تخصيص الوجوه بالذكر تنبيه بأن الوجوه وهي أعز أعضائهم الظاهرة تحيط بها النار.

﴿لِيَجزِيَ اللّهُ كُلَّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي أن الله سبحانه يجزي كل نفس بما عملت فيعاقب كل نفس مجرمة على ما اقترفت من كفر وعصيان لله ويثيب الله كل نفس مؤمنة ما عملت من خير ﴿إنَّ اللّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ فالله سبحانه لا يشغله شأن من شأن ولا يحتاج إلى تأمل وتدبر في إصدار حكمه بل يتمه في أسرع وقت.

﴿هَذَا بلاغٌ لِلنَّاسِ﴾ هذا القرآن فيه التبليغ الكافي لهداية الناس ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ وفيه إنذار وتخويف من عقاب الله إن استمروا على كفرهم وعصيانهم لله ﴿وَلِيَعْلَمُوا أنَّما هُوَ إلَهٌ واحِدٌ﴾ وليعلموا أن في القرآن الدلائل والبراهين الساطعة، والحجج الواضحة على وجود الله وأنه سبحانه إلَه واحد لا شريك له ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الألْبَابِ﴾ وليتعظ أصحاب العقول، وفي تخصيص أصحاب العقول بالعظة حَضٌّ للناس على أن يستخدموا عقولهم عند دراسة القرآن لينتفعوا به لا أن يقرأوه قراءة سطحية بدون تَدَبُّرٍ أو تَفَهُّم.

من المراجع

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي.

تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي.

تفسير جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري.

تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي.

حاشية الصاوي على تفسير الجلالين.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود الألوسي.

زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج الجوزي.

فتح القدير للشوكاني.

تفسير الكشاف للزمخشري

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.

تفسير سورة الرعد للأستاذ إبراهيم الجبالي. مجلة نور الإسلام. السنة السادسة.

التفسير الوسيط. تأليف لجنة من العلماء. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي.

تفسير المراغي لفضيلة الأستاذ أحمد مصطفى المراغي.

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر.

مؤتمر سورة يوسف للشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي.

المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

المحتويات

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

كلمة شكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب دار العلم للملايين الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين يوسف غزال

وإلى فضيلة الشيخ محمد شريف خليل سكر

والدكتوره هدى سنو

لما قدموه لي من معونة وملاحظات قيّمة

وإلى جامعة بيروت العربية لما قدّمته لي مكتبة كلية الآداب فيها

من مراجع علمية وخدمات جلّى على يد موظفيها الكرام

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه

وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم

المؤلف

تصميم الغلاف : علي شوربا

طباعة الكتاب : مطبعة علي موسى

تنضيد الأحرف والتركيب : المركز العربي للمطبوعات

هاتف : ٧٣٩٣٥٣ بيروت ـ لبنان

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي
  باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يٓس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طٰه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم



هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين